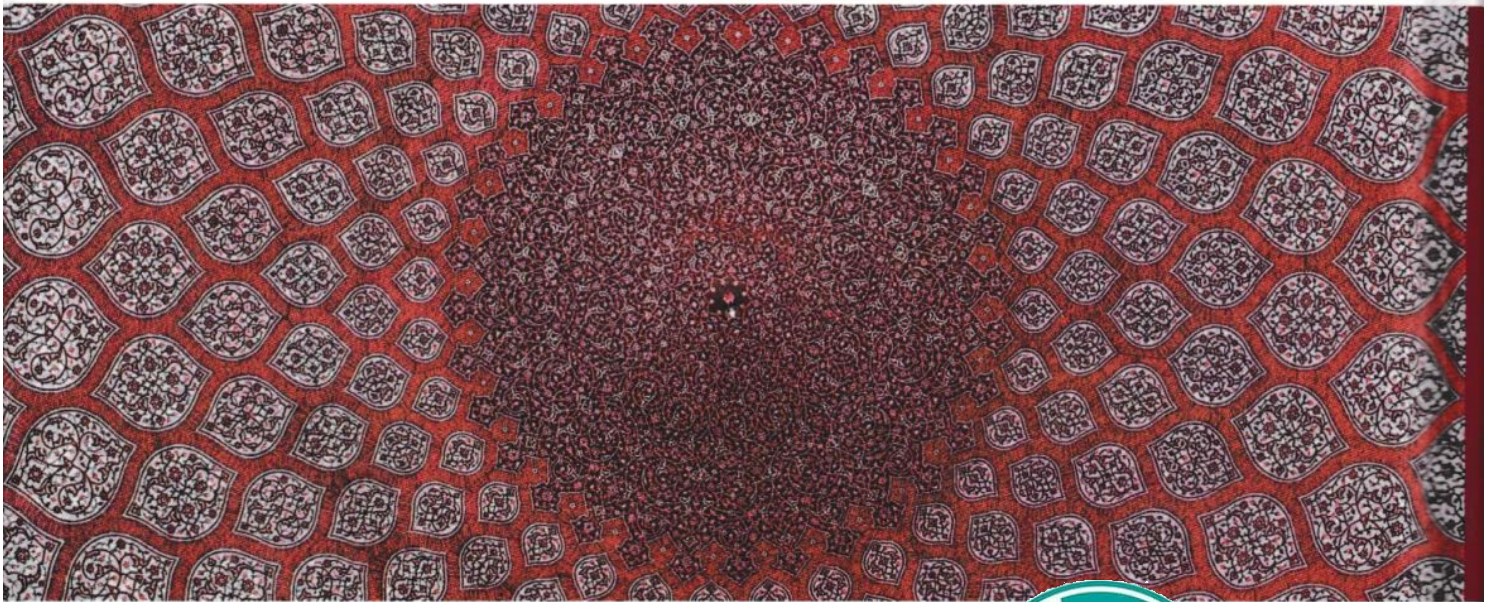


د. يُونُسُ الْقَرَضَاوِي

إِقْضَايَا الْمُبْدِئَةِ وَلَمَصِيرَةِ الْكِبَرِ لِلْإِنْسَانِ

مَاذَا أَنَا؟ وَمَنْ أَنَا؟ وَإِلَى أَيْنَ؟ وَلِمَ؟!



الدار
الشامية
تركيا



الناري الشبّابي

اقتضایا المبدئیة والمصیرة الكبرى
للإنسان



النَّارِي الشَّيْبَانِي

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

حقوق الطبع محفوظة

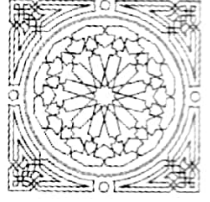
د. يُوسُفُ الْقَرَضَاوِي

إِقْضَايَا الْمُبْدِئَةِ وَالْمَصِيرَةِ الْكَبْرَى لِلْإِنْسَانِ

مَاذَا أَنَا؟ وَمَنْ أَيْنَ؟ وَإِلَى أَيْنَ؟ وَلِمَ؟!



مقدمة



هذا الكتاب أكتبه في أواخر حياتي، لا أريد أن أخاطب به المسلمين الذين أنا منهم ابتداءً؛ بل أريد أن أخاطب به غير المسلمين أولاً، سواء أكان لهم دين وثني أو كتابي، أو لم يكن لهم كتاب ولا رسول، أم لم يؤمنوا بأي دين قط، كما هو شأن الملاحدة، الذين لا يؤمنون بإله واحد ولا متعدد، ولا يؤمنون بحياة آخرة بعد هذه الحياة التي نعيشها، فهم لا يؤمنون بأن لهذا الكون إلهاً، ولا بأن لهذا الإنسان روحاً، ولا بأن مع هذه الدنيا آخرة.

لهذا كان لا بد لكل إنسان أن يفكر في أمره بصراحة وشجاعة، أمر نفسه ومصيره: ما هو؟.

لا بد لكل من في هذه الدنيا أن يموت، رجلاً كان أو امرأة، غنياً كان أو فقيراً، متعلماً أو أمياً؛ فهل الموت فناء محض؟ فلماذا كانت الحياة؟ أم هناك حياة أخرى؟ وما هذه الحياة؟ وهل لها منّا مطالب؟ وما هي؟.

لا بد أن يُعمل الإنسان عقله في هذه القضية الكبيرة، التي ينبغي أن تقدّم على كل القضايا، السياسية والاقتصادية، والعلمية والتقنية، التي يبحث فيها الناس ويتكلمون، ويُصدرون توصيات وقرارات، وقد لا يستطيعون أن يصلوا فيها إلى شيء يُجمع عليه الناس، إذا تأخرت الأفكار وتحكّمت الأهواء، وتصدرت الشهوات، وغلبت المصالح الشخصية أو الحزبية أو الفئوية.

لا بد للناس أن تؤرقهم وتوقظهم وتتعبهم هذه القضية الكبرى، التي يبحث كل إنسان فيها عن هويته، وعن موقعه في هذا الوجود، وخصوصًا بعد أن يُنقض هذا الكيان القائم، وهو الكون، ويأتي كيان آخر: ماذا له فيه؟. من لا يؤمنون بأن لهم ربًّا خلقهم، وخلق هذا الكون، ودبره لهم، يعتبرون حياتهم عبثًا، ولغطًا لا معنى له، وسوقًا تقوم وتنفض، ولا شيء وراءها!.

وإذا بحث الإنسان في قضية (المصير)، فلا بد أن يجزّه ذلك إلى قضية (المبدأ)، من أين أتيت؟ ومن جاء بي؟ ومن الذي جاء بهذا العالم الكبير من فوق ومن تحتي؟ ولماذا هذه المخلوقات الكثيرة من حولي؟ وما المقصود منها؟.

وأما أهل الإيمان بالدين وبالله وبالبعث لحياة أخرى، فيقولون: «والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزؤن بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدًا، أو لنار أبدًا»^(١).

هذا ما يقوله المؤمنون بالدار الآخرة، وأن في الآخرة الجنة والنار، دار الخلود الأبدي، دار الثواب لأهل الدين والخير والصلاح، أو دار العقاب لأهل الكفر والسوء والفساد، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

وعلى كل ذي دين، وعلى المسلمين خاصة أن يبلّغوا مضمون ذلك إلى الأمم الأخرى، والملل الأخرى، وإلى من لا ملة لهم.

(١) ابن الأثير في الكامل (٦٥٩/١).

وإن كان المسلمون مخاطبين بهذا الكتاب من ناحية: أن عليهم أن يتعلموا أن من واجباتهم الأولية التي فرضها عليهم دينهم، وألزمهم بها كتاب ربهم، وسنة نبيهم: أن يدعوا غير المسلمين إلى الإسلام - والإسلام هو الدين الذي بُعث به كل الرسل، وأنزلت به كل الكتب - وأن يتلوا قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

كل المسلمين مطالبون بذلك، وأهل العلم الشرعي، وأصحاب الدعوة الإسلامية منهم خاصة؛ مطالبون مطالبة أساسية بدعوة من لا دين لهم، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام.

نحن - المسلمين - جميعًا نعلم: أن ديننا منذ بُعث به نبينا محمد ﷺ بمكة المكرمة دينٌ عالمي، لم يكن يومًا دينًا قوميًا أو محليًا، بل هو دين عالمي، أعلن ذلك الرسول الذي أنزل الله عليه كتابه الخالد (القرآن الكريم)، وعلمه في هذا القرآن أنه مبعوث إلى الناس كافة، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم وأصفرهم، شريقهم وغربهم، شماليهم وجنوبيهم، وهو ما نطق به القرآن العظيم في سورة المكية، أي: التي تلاها الرسول بمكة، قبل أن يهاجر إلى المدينة، وقرأها وبلغها للناس، وعرف الخاص والعام أنها من القرآن المكي.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

والفرقان هو القرآن، الذي فرّق الله به بين الحق والباطل.

وقال تعالى يخاطب رسوله محمدًا بصريح العبارة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. هنا حصر القرآن رسالة محمد الذي خاطبه، بأنها رحمة، ولكن ليست للعرب وحدهم، ولا للمسلمين وحدهم، ولكنها للعالمين، كل العالمين.

وقال ﷻ: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].

وتكرر في السور المكية وصف القرآن بأنه (ذِكر للعالمين) أو (ذكرى للعالمين)، وكيفينا قول الله تعالى، الذي ختم به سورة (ص): ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٧ - ٨٨].

وختم سورة (ن) بقوله عن القرآن: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢].

وكذلك جاء في سورة التكويد: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكويد: ٢٧].

هذه الآيات وغيرها أوجبت على المسلمين أن يعرفوا من قرآنهم: أنهم أمة دعوة، وأن عليهم أن يوصلوا إلى العالم في كل مكان وبأي لغة تُتكلَّم رسالة القرآن ودعوة الإسلام.

ولذلك يعتبر العلماء الناس قسمين: أمة الإجابة، وهم الذين استجابوا لنداء الإسلام، وأسلموا، ودخلوا في الإسلام، وأصبحوا مسلمين. وبقية العالم تعتبر: أمة دعوة؛ لأنهم مدعوون أبداً إلى الإسلام. ولكن هل بلغهم المسلمون؟.

في ظني أن المسلمين مقصرون فيما عليهم، وعليهم أن يضاعفوا جهدهم، ويبدلوا أقصى ما يستطيعون، ليحصلوا على غايتهم، أو قليلاً منها، عسى أن يصلوا شيئاً فشيئاً إلى ما يريدون.

ولكن وراءهم مطلوبات كثيرة، حتى يحققوا ما يهدفون إليه، وأولها إعداد الدعاة القادرين على إيصال الدعوة، بكل لغة إلى الناس، باللغات الفصيحة، وباللغات الدارجة، وبلغة الحديث العادي، وبالدراما والقصة القصيرة، والرواية والمسرحية، وكل ألوان الثقافة، والله هو المعين.

إن البشرية شغلت نفسها بأمور كثيرة، من أجل أوطانها، ومن أجل غيرهم، ومن أجل أمور العيش ومطالب الحياة، ومن أجل أمور أخرى، بعضها يتعلق بالسياسة، وبعضها يتعلق بالثقافة، وبعضها يتعلق بالهوية.

واختلف الناس فيما بينهم كثيرًا، وتحاربوا وتعادوا، وأحيانًا يتفقون، بفعل نزعات الخير في بعض بني الإنسان، واستجابة بعض القادة لها، ثم سرعان ما يغلب الشرُّ الخير، وتعود المعركة كما كانت، ولا يزال الإنسان يعاني من هذه الوليات.

وكنا نتمنى أن تأخذ هذه القضايا الكبرى: القضية المصرية الأولى، وقضية مبدأ الإنسان، ومبدأ العالم، ومبدأ الحياة، ونحوها من قضايا الإنسان الكبرى؛ حيزًا معقولاً، ومساحة مناسبة من إنتاجات الثقافة العامة، ومن كتابات الأدباء والمفكرين والفلاسفة، ومن محاولات الإعلام الكبيرة التأثير في حياة الناس الشخصية والعامة، المادية والمعنوية.. ولكننا للأسف لم نجد في كثير من الإعلاميين الرغبة في الدخول إلى هذا المأزق الذي يعتبرونه خطيرًا.

نحن نريد من الناس أن يتبهاوا لأنفسهم، وأن يأخذوا القضية مأخذ الجد، وخصوصًا هؤلاء الناس الذين يعيشون آكلين شاربين، لا بسين ساكنين، متمتعين بحياتهم القصيرة، غارقين في لذائذهم وشهواتهم، حتى إذا آذنت شمسهم بالغروب، وحياتهم بالأفول، جاءهم الموت الذي يأتي كل الناس من حولهم، وهو أمر محتوم على البشر، طال العمر أو قصر، وإذا الموت قد اختطف هذا الإنسان من دنياه ومن ماله ومن أهله وأقاربه وأصحابه، وهو لا يدري: ماذا بعد ذلك؟ قد يفكر بعضهم في ذلك الوقت ما مصيره فيه؟ ما نهايته؟ ماذا وراء الموت؟ وقد لا يفكر.

مع أن المهم الأكبر للإنسان هو التفكير في مصيره، ومصير كل حي مثله بعد الموت، ماذا يكون هذا المصير؟.

وتفكيرنا في قضية مصير الإنسان، بعد هذه الحياة الدنيا، هو الذي جعلنا ننظر في كل قضايا الإنسان الكبرى، التي فكر الناس فيها من قديم، وسألوا أنفسهم عنها، وعُرفت هذه الأسئلة، وتناقلها الناس في مختلف الأزمان: ماذا أنا؟ ومن أين جئت؟ ومن أين جاء هذا العالم العلوي والسفلي من حولي؟. وقد بحثنا قضية أين المصير بعد الموت؟ أهو الفناء والعدم أم هو حياة أخرى، ووجود آخر، يثاب فيه الإنسان على حياته الأولى، أو يعاقب عليها، حسب إيمانه وعمله؟.

ثم السؤال الأخير عن الغاية التي وُجد لها الإنسان: ما هي؟ أهي غاية مادية كغايات الحيوانات الأخرى التي لم تؤت ما أوتي الإنسان؟ أم هي غاية روحية، فوق الجسد الترابي والكيان المادي الذي يلبسه الإنسان؟ فما هذه الغاية أو الرسالة التي خُلق من أجلها الإنسان، وكُلّف بالعمل لها، والإعداد لاكتمالها؟.

هذه الأسئلة الخالدة التي حصرها الناس بقولهم: ماذا أنا؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ ولم؟.

هذه الأسئلة وأجوبتها هي ما حاولنا أن ننبه عليها، ونلفت الأنظار إليها، ونوقظ الإنسانية كلها إلى الإجابة عنها، والإعداد لها؛ فالأمر خطير، وهو بالعناية جدير.

د. يوسف القرضاوي

الدوحة ٥ من جمادى الآخرة ١٤٣٧هـ

الموافق ١٤ مارس ٢٠١٦م.

القضية المصيرية الكبرى لكل إنسان



هناك في حياة كل إنسان، مهما يكن جنسه، أو لونه، أو وطنه، أو طبقته، أو ظروفه الخاصة: مشكلة أو قضية أساسية تعترضه في حياته، لا بد أن تعترضه في يوم من الأيام. هي كامنة في ضميره المستتر، وفي أعماق نفسه، قد تختفي أحياناً في ظروف الحياة التي يحياها الإنسان، وقد تبرد وتضعف، وقد تشتد وتحتد، وتشتعل وتُلح على الإنسان: أن يجد لها حلاً يرتضيه، أو يجد لأسئلتها التي تثور في ذهنه جواباً عليها مقنعاً صريحاً؛ فلا يكاد يجده، إلا بعد لأيٍ وسعي وتعب في البحث عن حقيقة السؤال المحير، أو عن الأسئلة العويصة، فإذا وجدها، فما أسعده! وما أهناه! وما أعظم سروره! وما أجل سعادته بما لقي!.

هنا يكون الإنسان كمن ظلَّ يشقى ويسعى في طلب ضالته، التي نشدها حتى يئس من وجودها، ووضع خذّه على الأرض ليموت، فاستيقظ فإذا هي أمامه.

إنها (المشكلة المصيرية) التي يتحدث عنها بعض السياسيين في بعض الأقطار، وفي بعض الأحيان، ولكن الحقيقة: أن المشكلة المصيرية هي - حقاً - مشكلة عامة، كل إنسان عنده هذه المشكلة، يلزم كل من كان في رأسه عقل يفكر، وكل من في قلبه ضمير يحس: أن يبحثها، وأن يهتدي إلى حلها.. فليس هناك مشكلة إلا ولها حل، ولا مرض إلا له دواء، عرفه من عرفه، وجهله من جهله، ولا بد للناس أن يظلوا يبحثون عنه حتى يجدوه.

• القضية المصيرية الأولى لكل إنسان: ماذا أنا؟ وما مصيري؟

كل إنسان، رجلاً كان أو امرأة، غنياً كان أو فقيراً، أميراً كان أو مأموراً، أين كانت معيشته في هذه الحياة؛ في طرف الدنيا الشمالي أو الجنوبي، الشرقي أو الغربي، أيّاً كانت ظروفه المعيشية: تنعم في بحبوحة العيش: ملاً بيته الخير، وامتلات يده بالمال، وحوله الخدم والحشم؛ أم كان في ضيق من العيش، لا يكاد يجد اللقمة التي تغذيه، والشربة التي ترويه، والثوب الذي يستره.. كل منهم، سيلح عليه هذا السؤال، أو هذه الأسئلة: ماذا أنا؟ وماذا بعد ذلك؟ هل أنا كائن مستقل، أم أنا كائن تابع؟ وإذا كنت مستقلاً، فلماذا أشعر أنني في حاجة إلى غيري، وكذلك غيري في حاجة إليّ؟.

كنت صغيراً جداً، كما أرى إخوتي الصغار يولدون ضعافاً، ليس لهم أعين تبصر، ولا سنن تقطع، ولا يد تبطش، ولا رجل تمشي، ولا لسان يتكلم.

ولكن هذا الصغير يجد الأم التي ولدته، لها ثدي يرضعه بفمه، دون أن يعلمه أحد كيف يلتقم الثدي، ويجد في حضنها ما يدفعه إذا برد، وما يشبعه إذا جاع، وما يرويه إذا عطش.. إنه اللبن الطبيعي الذي يتدفق من صدر أمه بارداً في الصيف، دافئاً في الشتاء، عذب الطعم، سهل الهضم، لا يحتاج معه إلى طعام آخر، في هذه الفترة.

هذه الأم هي كل دنياه، وكل ملكه، وعندها كل ما يحتاج إليه، يساعدها أبوه، الذي يهيئ لها من مواد الطعام والشراب، واللباس والمنام، والمأمن والدواء، وكل ما يهمه وجوده.

وإنما وجد أبواه الاثنان: أمه وأبوه، بوجود أسرتهما، أمهما وأبيهما، وهكذا كل صبي وصبية، يوجدان صغيرين حتى يكبرا، ضعيفين حتى يقويا، جاهلين حتى يتعلما، عاجزين حتى يقدرآ.

كل شيء يكسبه الإنسان عن طريق التعود أو التلقي والتعليم البسيط، شيئاً فشيئاً: الأكل، والمشي، والحركة، والكلام، حتى يصير إنساناً مكتملاً، قادراً على أن يزداد علماً، ويزداد قوة وقدرة على الحركة والنمو، ويتقوى في جهة الخير، أو في جهة الشر.

وهكذا حتى يكتمل نموه العقلي، يقرأ ويكتب، ويُسأل فيجيب، ويسأل غيره، ويريد منه أن يجيب، كما يسأل نفسه أحياناً أسئلة ليست سهلة الإجابة، ومطلوب منه أن يجيب عنها، فما من سؤال إلا له جواب.

- ماذا أنا؟:

هنا تثور في فكر الإنسان أسئلة عويصة تلح عليه، ويريد لها إجابة، ومنها هذا السؤال الكبير: ماذا أنا؟ أنا لا أشعر أنني كائن مستقل، أعيش وحدي، كما أشاء، بل أنا كائن تابع للمجموعة التي أعيش فيها، أتكلم باللغة التي يتكلمون بها، بل هم الذين لقنوني هذه اللغة، وأكل ما يأكلون، وأشرب ما يشربون، وألبس ما يلبسون، وأدين بما يدينون، إن كانوا يعبدون إلهاً واحداً، فأنا أعبد معهم كما يعبدون، وأطيعه كما يطيعون، وأتقيه كما يتقون، أصلي له وأقوم، وأبتل إليه وأصوم، وأبذل لمرضاته من مالي، وأحب من أمرني بحبه، وأبغض من أمرني ببغضه.

وإن كانت آلهتهم شتى، فأنا أعبد هذه الآلهة، وأستحسن ما يستحسنون، وأستقبح ما يستقبحون، قد تكون هذه الآلهة من الحجارة الصماء، أو من العجوة التي تؤكل - كما كان يفعل بعض العرب - وقد يقرصهم الجوع، فيضطرون إلى أكلها، وقد يكون إلها من البقر - مثل أهل الهند - التي يقدسها قومنا، فنقدسها، وندعها تمشي بيننا، أعني: الأنثى من البقر فقط! أما الثور الذي هو من جنسها، وهو أقوى منها، وهو

السبب في وجودها؛ فلا مكان له في الألوهية ولا التقديس! - وإن كان الفراعنة يعبدون عجلًا من البقر يسمونه (عجل أبيس) - وكذلك صنف الجاموس، وهو مثل البقر، لكن لونه أسمر، وهو أقوى من البقر جسّدًا، وأدّر منه لبنًا، ولبنه أكثر دسمًا، وخدمته للإنسان أكبر، ولكنه حرم من كل ما أعطي للبقر من عبادة ورعاية وتقديس.

وإن كانوا لا يؤمنون بإله قط، ولا يعترفون بأن للكون كلاً إلهًا واحدًا، أو آلهة شتى، كما هو شأن الملحدين، فأنا معهم، وأنا على طريقتهم.

وقد رأيت من أصدقائي وأقربائي ومعارفي من ينكر ما عليه المؤمنون، من وجود إله ورب لهذا الكون، ويسخر ممن ينادون هذا الإله، خصوصًا في ساعات الشدة والكربة التي تنزل بالإنسان، ولا يجد أمامه أحدًا يلجأ إليه، أو يعوذ به ويلوذ، إلا أن ينادي من أعماق فطرته: يا الله! يا رب!.

هل كل ما سبق من العقائد حق؟ هل كلها صحيح؟.

لا يستطيع أحد أن يقول ذلك، لا بد أن شيئًا من هذا هو الحق، وما عداه هو الباطل، لا بد أن واحدة من هذه الاعتقادات هي الصحيحة، التي قبلتها العقول الصحيحة، ونهضت بها الأدلة الصريحة، واستجابت لها الفطر السليمة، وما عداها فما هي إلا أباطيل.

ربما أجاب الشاب نفسه بعد أن يسأل هذا السؤال: ماذا أنا؟ ويقول لنفسه: لماذا أشغل نفسي بهذا السؤال وغيره من الأسئلة التي تلح عليّ، وعندي أشياء مهمة وعاجلة، تتطلب مني أن أفرّغ نفسي لها، لأحققها وأحصل عليها؛ ورائي الزواج والإنجاب، والعمل في الحياة، واجتذاب أنواع المسرات والملذات، لا بد أن أخوض معركة الحياة مع الخائضين، وأقنص منها مع القانصين.

- ولكن: ماذا بعد هذا؟:

نحن نعرف أن بعد الطفولة شبابًا، وبعد الشباب كهولة، وبعد الكهولة شيخوخة وشيئة، ثم ماذا بعد ذلك؟ أليس هو الموت؟!.

نعم، هو الموت، النهاية الحتمية لحياة الإنسان، الحافلة بما فيها من كفاح وصراع، وتجاذب وتضارب، وتقابل وتحارب، تنتصر حينًا، وتنهزم حينًا أو أحيانًا، تغني حينًا، وتفقر حينًا، وتصحُ حينًا، وتمرض حينًا، وتكسب حينًا، وتخسر حينًا، أو أحيانًا، ثم في النهاية الأخيرة يهجم عليك هذا الهاجم، الذي لا يفتر منه أحد، طال عمره أو قصر، سعد في الدنيا أم شقي، أخذ حقّه أم لم يأخذه، ظلم الناس أو ظلمه الناس، سيأتيه هذا الحدث الهائل، الذي سمّوه: الموت.

والإنسان قبل أن يموت جرّب الموت فيمن حوله، من يحب منهم، ومن يكره، أقرب الناس له، وأعز الناس عليه، وأحب الناس إليه: ماتوا، جدّه مات، وجدّته ماتت، وأبوه مات، وأمه ماتت، وعمّه وعمّته، وخاله وخالته، وكم من شاب في مثل عمره أصابه الموت، في مرض أصابه، ولم يجد له طبيبًا يعالجه، ولا دواءً يشفيه، وكم من صديق له أصابه بلاء مفاجئ في الطريق، فجاءه الموت وهو لا يفكر فيه، وكم من متجبر في الأرض، يمشي متبخترًا بين الناس، مستكبرًا عليهم، ظالمًا لهم، قد جاءه الموت فجأة، أو بجلطة دماغية، أو سكتة قلبية، فلم يجد في ماله ولا في أعوانه، ولا فيما حوله مُنْجِيًا، إلا الخضوع لجلال الموت.

قالوا: إن الشاعر العربي الكبير ابن الرومي أصابه مرض في آخر حياته، فعرضوه على طبيب، فشخص له الداء، ووصف له الدواء، ولكن المؤسف أن الطبيب غلط في الدواء، فكان سببًا في أن يقرب ابن الرومي

من الموت، وكان الناس يلومون الطبيب ويعذّلونه؛ لأنه كان سبباً في التعجيل بموت الرجل، ولكن الشاعر قال:

غلط الطبيب عليّ غلطة موردٍ عجزت مواردهُ عن الإصدارِ
والناس يُلحُون الطبيبَ وإنما غلُطَ الطبيبِ إصابةُ الأقدارِ^(١)

لقد تبين لنا باليقين، الذي لا يستطيع أحد أن يشك أو يشكك فيه: أننا كلنا ميتون. ثم ماذا؟ هل هناك شيء بعد الموت؟.

هذه هي الحقيقة التي لا بد للناس - كل الناس - أن يبحثوا عنها، سواء أكانوا كبار العقول أم صغارها! سواء أكانوا فلاسفة يبحثون فيما لا يفهمه العوام، ولا يفكرون فيه، ولا يسألون عنه، أم كانوا من الناس البسطاء، الذين ليس لهم عقول كبيرة ورؤوس مفكّرة، ولكن عندهم العقول العادية، التي يملكها كل الناس، يفكّرون بها في تدبير الرزق اللازم لهم ولأسرهم. لا بد لهؤلاء جميعاً أن يتباحثوا فيما لا بد لهم منه، ولا بد أن يتعاونوا معاً ليحلّوه، ولا بد أن يرقى بهم الحال ليدخلوا في قضايا أكبر مما يفكرون فيه، وأوسع دائرة، وأعلى مقاماً، وكلما اتسعت دائرتهم، ودخل فيها أناس كثيرون، مختلفو الأديان، مختلفو المذاهب، مختلفو الطرائق، وربما كان الاختلاف بين هذه الطوائف الكثيرة، وخصوصاً إذا ضُمَّت أمماً كبيرة، وأوطاناً واسعة، وجنسيات شتى، وفيها من العقائد والشرائع والفلسفات، ما يثير مزيداً من التساؤلات، ويفسح مجالاً للنزاعات، ويفتح الأبواب للتقاولات والنقولات، وكلّ له تأثير في أفكار الناس، وفيما ينبغي أن يتدبّر به الناس، أو ينتفع به الناس.

(١) معاهد التنصيص، لأبي الفتح العباسي (١١٨/١)، ت: محيي الدين عبد الحميد، نشر: عالم الكتب - بيروت.

أنا - إذا - واحد من الناس الذين يعيشون حولنا، آكل كما يأكلون، وأعيش كما يعيشون، وأموت كما يموتون. ولكن، ماذا نحن؟ وما شأن كل واحد منا؟ إذا كان كل ما يجري علينا يجري بقانون واحد، له بداية، وله نهاية، ولا يستطيع أحد أن يقف ضده، أو يقول له: لا. أو: غير طريقك. أو: خذ لك صيغة أخرى. كل ما عليه أن يستسلم له؛ ليمضي في طريقه. قد يحاول تحسين الحياة، أو تحسين شيء أو أشياء فيها، ولكن في النهاية لا بد أن يحكمه الموت.

كل الناس تنتهي حياتهم بالموت، الرسل والأنبياء، والقديسون والأتقياء، والملوك والأمراء، والرؤساء والوزراء، كلهم سيشرب من هذه الكأس، ويخرج بها من هذه الدنيا، ولكن القضية الكبرى هي: ماذا بعد الموت؟ هل بعد الموت تنتهي قصة الإنسان وقصة الحياة، ويصدق قول من قال: أرحام تدفع، وأرض تبلع؟ أمن أجل هذه السنين القصيرة التي مهما طالَت فهي منتهية خلق الإنسان؟.

لم ينشرح الناس لهذا المعنى أبدًا، أن الموت عدم محض، وفناء كامل، لم يصدق أحد هذه الدعوى، لماذا أعطي هذا الإنسان العقل الذي ميّزه على غيره؟ أو لماذا زُود بالموهب الروحية؟ ولماذا أُعطي الإرادة والقدرة؟ أهذا كله أُعطيَه الإنسان لمجرد العيش هذه السنوات، ثم ينفق كما تنفق البهيمة؟.

لقد رفض ذلك كلُّ ذي دين، وكل ذي عقيدة، مشرك أو موحد، ذي دين سماوي أو أرضي، شرعي أو وضعي، كلهم قالوا: إننا نحس في داخلنا، ومن أعماقنا، أن لنا حياة أخرى نحيهاها، حياة أخلد وأبقى. وأصحاب الأديان السماوية أخبرهم أنبياءهم بأن الموت إنما تموت فيه

أجسادهم، أما أرواحهم فباقية، ستعود هذه الأرواح وتتصل بالأجساد مرة أخرى، فالموت إنما هو رحلة من دار إلى دار، من دار الدنيا إلى دار الآخرة، كما قال الشاعر:

وما الموتُ إلَّا رحلةٌ غيرَ أنها مِنَ المنزلِ الفاني إلى المنزلِ الباقي! ^(١)

هذا ما يقوله أهل الأديان الكتابية، من اليهودية والنصرانية والإسلام. وكثير من أصحاب الأديان الأخرى لهم تصورات عن الحياة بعد الموت، وكلها تؤكد لكل إنسان أهمية هذه المرحلة وخطورتها.

فكل إنسان، مهما تكن قدرته ومركزه وماله وسنه وأتباعه، لا بد أن يفكر ويفكر، ويطيل التفكير في هذا الأمر الخطير، إنه أمر المصير، هل يصير إلى جنة أبدًا، أم إلى نار أبدًا؟ هذه القضية التي جعلناها عنوان هذا الفصل، وهو قضية المصير لكل إنسان.

* * *

(١) البيت لأبي العتاهية، انظر: الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ١٥١، نشر: مكتبة القرآن - القاهرة.



إنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا

إنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا. هذا ما يقوله المؤمنون بالله تعالى وبرسوله وبالدار الآخرة، وما يجري فيها من مواقف هائلة، وامتحانات رهيبة، ومساءلات حاسمة، في هذا اليوم العظيم الطويل، الذي يشتد فيه الهلع، ويعظم الخوف والفرع، من نصب الموازين، ونشر الدواوين، وسؤال الناس عمّا قالوه، أو فعلوه، أو ما نوّوه، في حياتهم السابقة، يحاسبهم ربهم عليه، خيرًا كان أو شرًا، حلّوا كان أو مُرّا.

في هذا اليوم يخرج الناس من مقابرهم وأجداثهم سراعًا يوفضون، كأنهم جراد منتشر، ليقفوا بين يدي المَلِكِ الأعلى، الذي ليس في هذا اليوم مَلِكٌ غيره، ولا مالك سواه، كما يقول تعالى في ذلك الوقت: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾ هل هناك أحد يدّعي المُلْك، أو يقول: إنه الإمبراطور، أو يزعم أن بيده شيئًا؟ لا أحد يرد على هذا السؤال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾ وإنما يرد المَلِكُ الأعظم والأوحد على نفسه قائلًا: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

هو المَلِكُ، وهو المالك في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

ولذلك نقرأ فاتحة الكتاب بهاتين القراءتين، وكلتاها صواب:

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ و﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

• أهل الدين يدعون الناس إلى جنة الخلد:

يقول أهل الدين، ورجال الإيمان، وعُباد الله وحده، للناس كل الناس، من كل من لم يرضَ بالله ربًّا، ولا بنبِيِّه رسولاً، ولا بكتابه الذي أنزله شرعةً ومنهاجًا، يقول لهم المؤمنون: يا قومنا، اسمعوا لنا، نحن لا نريد منكم دُنْيَا، ولا نريد أن تدفعوا لنا أَجْرًا، بل أجرنا كله على الله، هو وحده الذي يأجرنا، نحن لا نريد لأنفسنا شيئًا منكم، نحن في الحقيقة لا نريد إلا منفعتكم في الدنيا وفي الآخرة، نريد أن تعرفوا الحقيقة الكبرى، الظاهرة المكشوفة لنا، والمغيّبة - للأسف الشديد - عنكم: أنكم مخلوقون لخالق، ومربوبون لرَبِّ، وأن هذا الرب يريد منكم أن تؤمنوا به، وتعبدوه وحده، لا شريك له، هو سبحانه غني عنكم، وليس في حاجة إلى عبادتكم، ولو كفرتم به أنتم ومن معكم ومن حولكم، ومن شئتم من الناس، لن ينقص هذا من ملك الله تعالى شيئًا. كما أنكم لو أطمعتموه حقَّ الطاعة، وعبدتموه حقَّ العبادة، أنتم ومن حولكم، ومن قبلكم، ومن بعدكم، وأولكم وآخركم، لم يزد ذلك في مُلك الله شيئًا. إن الله سبحانه غنيٌّ عن العالمين، ليس في حاجة إلى أي شيء مما عندكم، وهل عندكم شيء؟ كل ما عندكم من خير وفضل إنما هو من عنده.

يقول المؤمنون بالله تعالى وكتبه ورساله: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]. ومعنى هذا: ألا يتأله بعضنا على بعض، ولا يستكبر بعضنا على بعض، فنحن البشر في الحقيقة أسرة واحدة، لنا رب واحد، يجب أن نؤمن به جميعًا، ولنا أب واحد، يجب أن ننسب إليه كلنا.

ربنا هو الذي خلقنا فسوّانا، ورزقنا وقوّانا، وأنعم علينا وهدانا.

هو الذي رزقنا العقول لنفكر بها في كل ما يُهْمُّنا، فميّزنا عن سائر الحيوانات البريّة والبحرية والجوية.

هو الذي سخر لنا كل المواد التي نحتاج إليها في رزقنا ورزق أولادنا، وسخر لنا كل ما في هذا الكون في أرضه وسمائه.

وأبونا الذي ننسب إليه هو آدم، أبو البشر، الذي خلقه ربنا بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، ومَن امتنع عن السجود له طرده من عليائه، فقد استكبر وكان من الكافرين، إنه الشيطان الرجيم، إبليس اللعين، عدو الإنسان المبين.

إن علينا نحن العقلاء الذين ما زالوا يُحْسُون أن في رؤوسهم عقولًا تفكر، وأن في وجوههم أعينًا تبصر، وأن فيها آذانًا تسمع، أن نصغي جيّدًا لما يقوله هؤلاء الدعاة المُلِحُّون علينا، الذين لا يكادون يتركوننا، حتى يعودوا إلينا.

يقول هؤلاء: يا قومنا، نحن ندعوكم إلى أمر خطير، ندعوكم إلى قضية المصير، بل لا توجد قضية مصير حقًّا إلا هذه القضية التي ندعوكم لها، كل القضايا الكبيرة، أو ما يسميه الناس: الكبرى، من قضايا الدنيا كلها قضايا زائلة، تبدأ اليوم، وتنتهي غدًا أو بعد غد، أو بعد أيام أو سنين.

ولكن القضية التي لا تنتهي أبدًا، هي قضيتنا، قضية الخلود والدوام الأبدي.

إنك إذا آمنت بالله سبحانه، ربّك وربّ الكون من حولك، وهو وحده الذي يستطيع أن يرحمك برحمته، وأن يذيقك من عذابه، وأن ينزل عليك رزقه، وأن يُقَتِّرَه عليك، ويستطيع أن يستجيب دعائك إذا دعوته، ويستطيع أن يؤخّره عنك ليجزيك بدله في الدنيا، أو يعوّضك عنه في الآخرة، إنه هو الذي

يأخذ الظالم المستكبر، المتجبر في الأرض، من ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿[الفجر: ١١ - ١٤].

وهو الذي يرزقك الزوجة الصالحة، ويهب لك الأبناء البررة، ويهيئ لك الأصدقاء والأعوان الصالحين، ويهيئ لك كل أسباب الخير والسعادة في الدنيا، إذا آمنت واستقيمت على طريقه، وبعد تلك النعم العظيمة؛ يجزيك حياة أطيب منها في الآخرة؛ جنات تجري من تحتها الأنهار، فيها ما تشتهي النفس، وتلذ الأعين، ثم فيها بعد ذلك ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وفيها ينعم الناس برؤية الله تعالى بأعين غير أعين الدنيا، ﴿وَجُوهٌ يُّوْمِرُ تَاضِرَةٌ﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢ - ٢٣].

يقول المؤمنون للكافرين: إن ما ندعوكم إليه ليس مجرد صفقة تجارية، أو نزهة برية أو بحرية، أو منفعة دنيوية، مما يعرفه الناس ويتذوقونه ويتناولونه ويتهادونه بينهم، كل هذه أشياء جرَّبناها وخَبَرْنَاها، وخَبَرَهَا أَنَاسٌ قَبْلَنَا، والتَّذَوُّوا بها مدة، ثم ذهب عنهم، أو ذهبوا هم عنها، ككل متع الدنيا ولذائذها.

ما ندعوكم إليه - يا قومنا - أكبر من هذه المتع التي بالغتم في وصفها، وغامرتم في إيقاعها، وفاتكم الخير الكثير، حينما ركضتم وراءها، فما هي - والله - إلا السراب، يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجد مكانه شيئاً، ما ظنته العين ماءً، لم يكن ماءً حقيقياً، وهكذا كل متع الدنيا. يقول الشاعر العربي:

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مُصِيرُ ذَاكَ إِلَىٰ انْتِقَالِ!
وما دنيَاك إِلَّا مِثْلُ ظِلٍّ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنَ بِالزَّوَالِ!^(١)

(١) البيت لأبي العتاهية، انظر: لباب الآداب، للشعالبي، ص ١٧٢، نشر: دار الكتب العلمية، ط ١.

ما ندعوكم إليه - يا إخواننا من عباد الدنيا - إنما هو شيء غير هذه اللذائذ الفانية، والمرغوبات التافهة، التي تُحسُّ بها ساعتها، ثم بعد دقائق تشعر بأنك فارغ منها، ذهبت لذتها، وبقيت حسرتها.

ما ندعوكم إليه إنما هو جنة عرضها كعرض السماء والأرض، أُعِدَّت للذين آمنوا بالله ورسوله، «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»^(١).

أتعلمون كم مساحة هذه الجنة؟ ذكر القرآن عرضها فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وإذا كان عرض الجنة عرض السماوات والأرض، والعرض أقل من الطول، فكم يكون طول الجنة؟.

وكم يكون ملك الشخص من أهل الجنة؟ كم تكون المساحة التي له؟ قَدَّر، ثم قَدَّر، ثم قَدَّر.

سيكون نصيبه أضعاف ما تُقَدَّر، لتعرف الحقيقة: اقرأ هذا الحديث وما بعده في فضل الجنة وما فيها:

• ذكر ما لأدنى أهل الجنة فيها:

تأمل هذين الحديثين اللذين رواهما مسلم، فيما لأدنى أهل الجنة فيها: - عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «أَنَّ مُوسَى عليه السلام سَأَلَ رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ فَقَالَ: رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ،

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٥)، وأحمد (٢٢٨٢٦)، عن سهل بن سعد الساعدي.

فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتِهِمْ؟.

فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ رب.

فيقول له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيت رب.

فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك، ولذت عينك. فيقول: رضيتُ رب.

قال (موسى عليه السلام): رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم ترَ عَيْنٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشر^(١).

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة: رجل صَرَفَ الله وجهه عن النار، قَبِلَ الجنة، ومَثَّلَ له شجرة ذات ظِلٍّ، فقال: أي رب، قَرَّبني إلى هذه الشجرة، أكون في ظِلِّها..» فذكر الحديث في دخوله الجنة وتمنيهِ إلى أن قال في آخره: «حتى إذا انقطعت به الأمانِي قال الله: هو لك وعشرة أمثاله». قال: «ثم يدخل بيته، فتدخل عليه زوجته من الحور العين، فتقولان: الحمد لله الذي أخياك لنا، وأحيانا لك». قال: «فيقول: ما أُعْطِيَ أحد مثلَ ما أُعْطِيتُ!»^(٢).

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٨٩)، والترمذي في التفسير (٣١٩٨).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨٨)، وأحمد (١١٢١٦).

• وصف درجات الجنة وغرفها وأنهارها:

وانظر هذه الأحاديث في درجات الجنة، وغرفها وخيامها وأنهارها:
- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة لَيَتَرَاءُونَ أهل الغُرَف من فوقهم، كما يَتَرَاءُونَ الكوكب الدُرِّيَّ الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب، لِتَفَاضُلِ ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم! قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»^(١).

- وعن أبي مالك، عن النبي ﷺ: «إن في الجنة غُرَفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصَلَّى بالليل والناس نيام»^(٢).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»^(٣).

- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوّفة، طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً»^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣١).
(٢) رواه أحمد (٢٢٩٠٥) وقال مخرجه: إسناده حسن، وابن خزيمة في الصيام (٢١٣٧)، وابن حبان في البر والإحسان (٥٠٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥١٦٢): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٨).

- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافّاه من ذهب، ومجرّاه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر حافّاه قبابُ الدرّ المُجَوَّفِ، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك. قال: فضرب المَلَك بيده، فإذا طينته مِنْكَ أَذْفَرُ»^(٢).

- وعن حكيم بن معاوية القشيري، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر للماء، وبحر للبن، وبحر للعسل، وبحر للخمر، ثم تشقّق الأنهار بعدُ»^(٣).

وفي القرآن الكريم: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، إن شئتم فاقروا: ﴿وَزَلَّ مَمْدُودٌ وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ﴾ [الواقعة: ٣٠ - ٣١]»^(٤).

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٣٦١) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٤)،

والطبري في التفسير (٦٨٨/٢٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٩٨).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٨١)، وأحمد (١٢٩٨٩).

(٣) رواه أحمد (٢٠٠٥٢) وقال مخرجه: إسناده حسن، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٧١) وقال: حسن صحيح، والدارمي في الرقاق (٢٨٧٨)، وابن حبان في المناقب (٧٤٠٩).

(٤) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥١)، وأحمد (١٢٣٩٠)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٩٣).

• فناء الدنيا ومتعتها:

وكم تبقى الجنة لصاحبها؟ أو كم يبقى صاحب الجنة للجنة؟
 إن هناك أناسًا يتمتعون بأشياء ممَّا يسميه الناس: نعيم الدنيا، أو متاع الدنيا، ولكن إلى أي مدة يدوم هذا المتاع أو هذا النعيم؟
 الواقع الذي عايشناه بأنفسنا، ورأيناه بأعيننا، ولمسناه بأيدينا: أننا نرى هؤلاء أصنافًا شتى، فمنهم من يتمتع به قليلًا، ثم سرعان ما يزول هذا النعيم، وتتبدَّل صحته مرضًا، ومتعه همًّا، وحياته ضنكًا، وحلاوته مرارة.

ومنهم من يعيش فيه سنين، ثم يموت حبيبه الذي كان يسعى له: ابنه، أو أميره، أو صديقه، فتصبح الحياة بعده شجرة ذابلة، ودارًا ضيقة، وعيشًا لا معنى له ولا طعم.

ومنهم من يعيش في نعمة وقوة وعافية، طاغيًا متكبرًا، فينزل عليه بأس الله فجأة، فيهوي إلى مكان سحيق، ويصبح كأن لم يغن بالأمس.

ومن الناس من ذهب عنه النعيم فجأة، كما جاء فجأة، وكثيرًا ما شاهدنا أناسًا كانوا في بحبوحة من العيش، ثم ضربهم الدهر بضربات، فإذا هم لا يجدون شيئًا، وأصبحوا يسألون الناس، بعدما كان الناس يسألونهم، كما قالت بنت النعمان بن المنذر^(١):

فبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرنا إذا نحنُ فيهم سوقةٌ نتصَّفُ!
 فأفٌ لدنيا لا يدومُ نعيمُها تقلُّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرَّفُ!

(١) البيتان لحُرقة بنت النعمان بن المنذر. ومعنى نتصّف: نخدم غيرنا.

وهَبْ أن من الناس من عاش عمره كله في وفرة من العافية، وسعة من العيش، ورصيد من المال والجاه، وحظوة من الأهل والأصدقاء، فكم تكون مدة هذا، لو سلِمَ من الشكوى؟!..

ومن ذا الذي يسلم من الشكوى، من مرض مؤلم، ومن ولد عاقٍ، ومن امرأة مؤذية، ومن صديق خائن، ومن قريب غادر، ومن.. ومن؟!..

قل ما شئت فيما يمكن أن يتمتع به الإنسان في دنياه، كم تكون قيمة هذه المنفعة في جانب ما يعطيه لك الله تعالى في الجنة، سواء أكنت من المقربين في أعلى عليين، أم من أهل اليمين؟..

هل سعادة الجنة ومتعتها مئة سنة؟ ألف سنة؟ ألف ألف سنة؟ ألف ألف سنة؟ ألف مليون مليار سنة؟ قل ما شئت، وزد وأطل، فإن الجنة نعيم لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وعطاء غير مجذوذ.

من يضيع هذا النعيم المقيم من رب كريم، نعرف بعضه، ولا نعرف كله، وما نعرفه منه شيء هائل، لا يمكن وصفه، ولا تصويره، ولا تقريبه للناس، إنما يعرفه من يكون من أهله، من يقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبَّرْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

هل يضيع الإنسان هذه السعادة القصوى، بماديّتها ومعنويّتها؟ هل يدع هذا النعيم الكبير، بكل مشتملاته، من أجل شهوات بهيمية، وغرائز حيوانية، ونزوات سبعية، ونزغات شيطانية؟..

يا أهل العقل، يا إخواني، يا قومي، انظروا، فالأمر أخطر من أن يُتْرَكَ، أو لا يُفَكَّر فيه.

• أهل الدين يدعون الناس إلى الفرار من عذاب جهنم الأبدي:

وما قلناه في نعيم الجنة المادي والروحي، الذي يسعد به أهل الجنة، نقوله في عذاب جهنم الذي يشقى به أهلها من المكذبين الضالين، الذين طالما حذّره منها الرسل وأتباعهم من الدعاة المؤمنين الصادقين، وقال قائلهم في الدنيا لهؤلاء المكذبين ما قاله مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ • يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتْعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ • مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ • • وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ • تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ، مَا لِيَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ • لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ • فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿[غافر: ٣٨ - ٤٤].

ونحن كما ذكرنا لك نصوصًا من القرآن الكريم، ومن الأحاديث النبوية الصحيحة، فيما أعدّه الله للمؤمنين في الآخرة، من نعيم ومن هناءة، ومن عيش طيب، نذكر هنا بعض ما أعدّه الله للكافرين به، والمعرضين عنه، من نار وعذاب، يبدأ بيوم القيامة، الذي نرى الناس فيه سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد:

- اقرأ بعض الآيات في عذاب جهنم، كما في سورة الكهف: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

- واقرأ في سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ • طَعَامُ الْأَثِيمِ • كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ • كَغَلِي الْحَمِيمِ • خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ • ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ • ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ • إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠].

• الاستعاذة بالله من النار:

واقرأ بعض ما انتقينا من أحاديث الترغيب في سؤال الله الجنة، والاستعاذة من النار:

- عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»^(١).

- وعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: سمعني رسول الله ﷺ وأنا أقول: اللهم أمتعني بزوجي: رسول الله، وبأبي: أبي سفيان، وبأخي: معاوية. فقال: «سألت الله لآجالٍ مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يُعَجَّلَ شيئاً منها قبل أجله ولا يؤخَّر، ولو كنت سألت الله أن يعيدك من النار وعذاب القبر كان خيراً وأفضل»^(٢).

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الجنة ثلاث مراتٍ قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة. ومن استجار من النار ثلاث مراتٍ قالت النار: اللهم أجره من النار»^(٣).

(١) رواه مسلم في المساجد (٥٩٠)، وأبو داود في الوتر (١٥٤٢)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٤)، والنسائي في الجنائز (٢٠٦٣).

(٢) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٣)، وأحمد (٤٢٥٤).

(٣) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٧٢) وقال: وروي عن أبي إسحاق، عن بريد بن أبي مريم، =

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سيارة يتبعون مجالس الذكر...» فذكر الحديث إلى أن قال: «فيسألهم الله ﻋَـبَـدُكُ، وهو أعلم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك: يسبحونك ويكبرونك، ويهللونك ويحمدونك، ويسألونك. قال: فما يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك. قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا، أي رب. قال: فكيف لو رأوا جنتي؟! قالوا: ويستجيرونك. قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك يا رب. قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا. قال: فكيف لو رأوا ناري؟! قالوا: ويستغفرونك». قال: «فيقول: قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا»^(١).

• الترهيب من النار:

ومن ذلك أحاديث الترهيب من النار:

- عن أنس رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]^(٢).

- وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار» قال: وأشاح، ثم قال: «اتقوا النار» ثم أعرض وأشاح ثلاثاً، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمره، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»^(٣).

= عن أنس بن مالك، موقوفاً أيضاً، والنسائي في الاستعاذة (٥٥٢١)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٤٠)، وابن حبان في الأدعية (١٠٣٤) وقال الأرناؤوط: حديث صحيح. والحاكم (٥٣٤/١) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٥٠٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٦٣٨٩)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٩، ٦٥٤٠)، ومسلم في الزكاة (١٠١٦).

والإشاحة: الخوف والحذر، وأشاح - بشين معجمة وحاء مهملة - معناها: حذر النار كأنه ينظر إليها. وقال الفراء: المُشِيح على معنيين: المقبل إليك، والمانع لما وراء ظهره. قال: وقوله: أعرض وأشاح؛ أي أقبل^(١).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئاً»^(٢).

- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: «أنذرتكم النار، أنذرتكم النار».. حتى لو أن رجلاً كان بالسُّوق لسمعته من مقامي هذا، حتى وقعت خَمِيصَةٌ^(٣) كانت على عاتقه، عند رجله^(٤).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل أمتي، كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدوابُّ والفراش يقَعْنَ فيها، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكُمْ، وأنتم تَقَحَّمُونَ فيها»^(٥).

(١) تهذيب اللغة، للهرودي (٩٦/٥)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، تحقيق: محمد عوض مرعب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٤)، كما رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١٨٥)، والنسائي في الوصايا (٣٦٤٤).

(٣) الخميصة: كساء أسود أو أحمر له أعلام.

(٤) رواه أحمد (١٨٣٩٨) وقال مخرجه: إسناده حسن، والحاكم في الجمعة (٢٨٧/١) وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٤٤): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٨٣)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٤).

- وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم، كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذُبهن عنها، وأنا آخذٌ بحُجَزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي»^(١).

والحُجَز - بضم الحاء وفتح الجيم - جمع حُجْزة، وهي مَعْقِد الإزار.

- وعن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «والذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيْتُ لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً» قالوا: وما رأيْتَ يا رسول الله؟ قال: «رأيْتُ الجنة والنار»^(٢).

• شدة حرّ النار وبُعد قعرها:

وأحاديث أخرى في شدة حرها، وبُعد قعرها:

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ناركم هذه؛ ما يوقد بنو آدم، جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية. قال: «إنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرّها»^(٣).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها». قال: «فجاء، فنظر إليها، وإلى ما أعد الله لأهلها فيها». قال: «فرجع إليه، قال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فأمر بها فحُفَّت بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها». قال: «فرجع إليها، فإذا هي قد حُفَّت بالمكاره، فرجع إليه، فقال: وعزتك، لقد خفت أن

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٢٨٥)، وأحمد (١٤٨٨٧).

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٢٦)، وأحمد (١١٩٩٧)، وأبو يعلى (٣١٠٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٣).

لا يدخلها أحد. وقال: اذهب إلى النار، فانظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها». قال: «فانظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع إليه، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فأمر بها فحُفَّت بالشهوات، فقال: ارجع إليها. فرجع إليها، فقال: وعزتك، لقد خشيتُ أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»^(١).

- وعن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غزوان رضي الله عنه فقال: إنه ذُكر لنا أن الحَجَرَ يُلقى من شفير^(٢) جهنم، فيهوي فيها سبعين عامًا، ما يدرك لها قعرًا، والله لتملأَنَّ، أفعجبتم؟!^(٣).

- وكان عمر يقول: أكثرُوا ذكرَ النار؛ فإن حرَّها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامها حديد^(٤).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فسمعنا وَجْبة، فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا حجر أرسله الله في جهنم منذ سبعين خريفًا، فالآن حين انتهى إلى قعرها»^(٥).

فماذا تقولون يا إخواننا من البشر، الذين أنعم الله عليهم بعقول تفكر، وبقلوب تخشع، وبعيون ترى، وبضمائر تحيا؟.

(١) رواه أحمد (٨٦٤٨) وقال مخرجه: إسناده حسن، وأبو داود في السنة (٤٧٤٤)، والترمذي

في صفة الجنة (٢٥٦٠) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٦٣).

(٢) شفير جهنم: أصله من تسميتهم ناحية الوادي من أعلاه: شفير الوادي.

(٣) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٧)، وأحمد (١٧٥٧٥).

(٤) رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٥٧٥) وقال: لا نعرف للحسن سماعًا من عتبة بن غزوان،

وإنما قدم عتبة بن غزوان البصرة في زمن عمر، وولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر.

وصححه الألباني في الصحيحة (١٦١٢).

(٥) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٤)، وأحمد (٨٨٣٩).

ماذا تفعلون أمام ما يقوله الرسل الذين اختارهم الله رب العالمين، وأرسلهم لعباده مبشرين ومنذرين؟.

والله إن الأمر لجد خطير، لا يمكن التفريط فيه، ولا استطاع إهماله وتأجيله، ولا الاستراحة منه، ويجب أن نأخذ أنفسنا بالحزم، ونعزم إرادتنا، ونجند أنفسنا لمفارقة عدونا إبليس: الشيطان الأكبر، والعدو المتربص بنا وبإخوتنا، وبأبنائنا وذرياتنا. ولا نجاة لنا إلا بمعصيته، وطاعة ربنا الذي أتم علينا نعمته، وأنزل في قلوبنا سكينته، ونشر علينا فضله ورحمته.

ربنا اغفر لنا وارحمنا وأنت أرحم الراحمين.

* * *

بقية الأسئلة الخالدة



ليس السؤال عن المصير هو السؤال الوحيد الذي يطارد الإنسان، ويركض وراءه أينما ذهب، خصوصًا إذا كان عنده شيء من الذكاء، وإذا كان يهتم بحياته وحياة من حوله؛ بل هناك في قضايا الإنسان الأساسية أسئلة كثيرة معروفة.

هناك جملة من الأسئلة المهمة الخطيرة، تلح على الإنسان أن يجيب عنها، ولا يفر منها؛ لأنه إن تركها فلن تتركه، منها: السؤال الذي ذكرناه فيما سبق، وهو: ماذا بعد الموت؟ وهو السؤال عن مصير الإنسان.

نعم هناك عدة أسئلة أخرى ضرورية، وشديدة الإلحاح على كل إنسان، هي:

- ماذا أنا؟ ومن أين جئتُ وجاء هذا العالم؟ وإلى أين أذهب ويذهب عالمي؟.

- لماذا وُجدتُ؟ وما مهمتي في هذا الوجود، ورسالتي في هذه الحياة؟.

أسئلة يجب على الإنسان - كل إنسان - أن يسألها لنفسه، وأن يفكر مليًا في جوابه عنها.

فإن كل جهل - مهما عظمت نتائجه - قد يُغتفر، إلا أن يجهل الإنسان حقيقة نفسه، وسر وجوده، وغاية حياته، ورسالة نوعه وشخصه في هذه الأرض!.

وأكبر العار على هذا الكائن الذي أوتي العقل والإرادة (الإنسان) أن يعيش غافلاً، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، لا يفكر في مصيره، ولا يدري شيئاً عن حقيقة نفسه، وطبيعة دوره في هذه الحياة، حتى يوافيه الموت بغتة، فيواجه مصيره المجهول، دون استعداد له، ويجني ثمرة الغفلة والجهل والانحراف في عمره الطويل أو القصير - وعمره مهما يطل قصير - وحينئذ يندم حين لا ينفع الندم، ويرجو الخلاص، ولات حين مناص.

لهذا كان لزاماً على كل بشرٍ عاقل - كما ذكرنا - أن يبادر فيسأل نفسه بجد بعد سؤال: ماذا أنا؟ وإذا عرف أنه إنسان مخلوق، فليُجب عن الأسئلة الأخرى، المكّلة لهذا السؤال، وهي: من أين أنا؟ وإلى أين؟ ولماذا خلّقت؟ وما غاية خلقي؟.

• الأسئلة الخالدة:

وقبل أن يجيب عن هذا السؤال، أو يجاب عنه، بل قبل أن يسأله، يلزمه أن يسأل نفسه أسئلة أخرى؛ لكي يتضح له الجواب، وتبين له الحقيقة كاملة مشرقة، لا يحجبها سحاب ولا ضباب:

- السؤال الأول هو: من أين جئت وجاء هذا العالم من حولي؟ وبعبارة أخرى: كيف جئت؟ وهل لي مُوجد؟ ومن أوجدني؟.

- السؤال الثاني هو: ما مصيري بعد أن وُجدت؟ وإلى أين أذهب بعد الموت؟ هل هو الفناء المحض؟ أم هناك وجود آخر وحياة أخرى؟.

- ثم يأتي السؤال الثالث وهو: لماذا وُجدت؟ وهل لي رسالة؟ وما

هي؟.

ويعبر بعض المفكرين عن هذه الأسئلة بهذه الكلمات الموجزة: ماذا أنا؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ ولم؟.

هذه هي الأسئلة التي صاحبت الإنسان منذ فُكّر وتأمل، وما زالت تصحبه وتُلح عليه، وتطلب الجواب الشافي لها، فبدون هذا الجواب لا تتحدد كينونة الإنسان، ولا موضعه في الكون، ولا رسالته في الوجود، وكيف يتحدد شيء من ذلك إذا كان كائنًا لا يعرف: ما هو؟ ولا لِمَ هو؟ ولا من أين هو؟ ولا إلى أين هو؟!.

إنها الأسئلة الخالدة التي حاولت كل فلسفة في الشرق أو في الغرب أن تجيب عنها. بل لا تعد فلسفة إذا أغفلت الجواب عنها.
ماذا أنا؟.

ومن أين؟.

وإلى أين؟.

ولماذا؟.

من أين جئت أنا الإنسان؟ ومن جاء بي؟ وكذلك من أين جاء هذا العالم الكبير من حولي: الأرض وما فيها، وما تحتها، والسموات وما فيها، وما بينها، وما فوقها؟.

وإلى أين أسير وأرحل بعد أن أوجدت في هذا الكون؟ وإلى أين يسير هذا الكون أيضًا؟ وماذا بعد هذه الصفحات التي أطويها من كتابي الذي يُسمّى (العمر)؟.

ولماذا خلقت في هذا العالم؟ وهل لي فيه من رسالة خاصة، ومهمة متميزة؟ وما هذه الرسالة، وتلك المهمة؟.

• من أين؟ وكيف؟

أما السؤال الأول، فهو عُقْدَةُ العُقْدِ عند الماديين، الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس، فهم لا يؤمنون إلا بما يدركه الحس المادي! ينسبون أنفسهم إلى الفلسفة؛ وهم أبعد ما يكونون عن الفلسفة الحقيقية.

يقولون: نحن لا نؤمن إلا بما نُحِسُّ به إحساسًا معروفًا يشهد به الجميع، بمعنى: أننا نبصره بأعيننا المركبة في وجوهنا، كما نرى الشمس في وُضْحِ النهار، وكما نرى القمر حين يدخل الليل.

وكما نبصره بأعيننا، يجب أن نسمع صوته بآذاننا، فإذا كان حيًّا فلا بد أن ينطق ويتكلم، ولا بد أن يسمع كلامه. فإذا لم نسمع له كلامًا بآذاننا فلا وجود له.

وإذا كان حيًّا فلا بد لنا أن نلمسه بأيدينا حين يقترب منا، كما نلمس كل الأشياء بحاسة اللمس.

ومثل اللمس: الشَّم، فهو إحدى الحواس الخمس.

وآخر الحواس المعروفة من قديم عند الناس هي: حاسة الذوق، التي تعرف الحار من البارد، وتعرف المُرَّ من الحلو، وتعرف المِلْح من العذب، وتعرف حَبَّة العدس من حبة الفُلْفُل.

ما لا يعرف بهذه الحواس أو بإحداها، فليس بإله، كيف يكون إلهًا يطلب من الناس - من كل الناس - أن يؤمنوا به، ويصدقوا بأنه خالق الكون، وخالق الإنسان، وواهب الحياة، وهو لا يستطيع أن يثبت وجوده للناس، ليبصروه أو يسمعوه أو يلمسوه أو يشموه أو يذوقوه، أو يعرفوه معرفة حسية مباشرة بأي حاسة يعرفها الناس؟!.

إنهم يخنقون صوت الفطرة في صدورهم، ويتحدّون منطق العقل في رؤوسهم، ويصرون - في عمى عجيب - على أن هذا الكون بما فيه ومن فيه وُجد وحده! وكل ما فيه من إحكام وترتيب إنما هو صنعُ المصادفة العمياء! أما الذين يستجيبون لنداء الفطرة، فيقرّون بأن لهم ولهذا الكون حولهم ربًّا عظيمًا، تتجه قلوبهم إليه بالتعظيم والرجاء، والخشية والتوكل والاستعانة، هذا شيء يشعرون به في أعماقهم شعورًا أصيلًا، وهذا هو الدين الذي عبّر عنه القرآن بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد يخفّت هذا الصوتُ الفطري في النفس، أو يكبته صاحبه عمدًا في ساعات الرخاء والسّعة والدّعة، فإذا نزلت بالإنسان أحداثٌ مريرة، واهتزّ عودُه أمامَ الشدائد القاسية، وخاب أمله في الناس من حوله، هنالك ينطلق هذا الصوت مُتّجِّهًا إلى ربّه، ضارعًا خاشعًا، داعيًا راجيًا، منيبًا إلى الله.

سأل رجل الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن (الله)؟ فقال: ألم تتركب البحر؟ قال: بلى. قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بك الرياح عاصفة؟ قال: نعم. قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم. قال: فهل خطر في بالك وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم. قال: فذلك هو (الله)!.

وعلى هذه الحقيقة تُنبّه آيات كثيرة في القرآن:

- ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨].

- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢].

- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

ويقول الفيلسوف الفرنسي الكبير ديكارت: «إنني مع شعوري بنقص في ذاتي أحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة، وأراني مضطراً إلى اعتقادي بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة، المتحلية بجميع الصفات الكاملة، وهي الله».

ونظراً لأن الشعور نابع من الفطرة الأصيلة، نجد الإيمان بقوة غلbia فوق الطبيعة وفوق الأسباب، أمراً مشتركاً بين بني الإنسان في جميع البقاع، وبين شتى الأجناس والأقوام، وفي مختلف مراحل التاريخ.

يقول الفيلسوف الفرنسي برغسون: «لقد وُجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة».

ويقول أرنست رينان في (تاريخ الأديان): «إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية»^(١).

وإذا كان منطق الفطرة يهدي إلى الله - والفطرة ليست وجداناً خالصاً، ولا عقلاً محضاً، وإنما هي مزيج منهما - فإن العقل المحض يرى الإيمان بالله ضرورة، لا محيص عنها، حتى يستطيع أن يفسر بها وجود الكون والحياة والإنسان. فإن العقل - بغير تعلم ولا اكتساب - يؤمن بقانون (السببية) إيمانه بكل البدّهيات والأوليّات، فلا يقبل فعلاً من غير فاعل، ولا صنعة من غير صانع.

(١) نقلاً عن كتاب: الدين، للدكتور دراز، ص ٨٧.

وقانون السببية هو الذي عبّر عنه الأعرابي بسذاجة وبساطة حين سأله عن (الله) فقال: البعرة تدل على البعير، وخط السير يدل على المسير، فكيف بسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على العلي الكبير؟!.

يقول العالم الطبيعي المعروف إسحاق نيوتن: «لا تشكّوا في الخالق؛ فإنه ممّا لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هي قاعدة هذا الوجود»!. وكلما ازداد اطلاع الإنسان على عجائب الكون، ومعرفته بما فيه من جمال وإحكام، ولم يقف عند القشور، ازداد إيماناً بوجود الخالق وحكمته وعظمته وكمال صفاته.

وفي هذا ينقل لنا (سبنسر) عن (هرشل) قوله: «كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي، لا حد لقدرته ولا نهاية؛ فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم، وهو صرح عظمة الله وحده»!.

ويقول سبنسر: «إن العالم الذي يرى قطرة الماء، فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والهيدروجين بنسبة خاصة، بحيث لو اختلفت هذه النسبة، لكانت شيئاً آخر غير الماء؛ ليعتقد عظمة الخالق وقدرته، وحكمته وعلمه الواسع، بأشد وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعي، الذي لا يرى فيها إلا أنها نقطة ماء فحسب! وكذلك العالم الذي يرى قطعة البرد وما فيها من جمال الهندسة، ودقة التقسيم، لا شك أنه يشعر بجمال الخالق، ودقيق حكمته، أكبر من ذلك الذي لا يعلم عنها، إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد»!.

ويقول فرنسيس بيكون: «إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد، ولكن التعمق فيها ينتهي بالعقول إلى الإيمان؛ ذلك لأن

عقل الإنسان قد يقف عند ما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة، فلا يتابع السير إلى ما وراءها، ولكنه إذا أمعن النظر، فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها، لا يجد بُدًّا من التسليم بالله».

تلك هي شهادة رجال رسخوا في علوم الكون، وغاصوا في أعماقها، وهي شهادات في جانب الإيمان، ولكن الشك والإلحاد يأتيان من جانب الذين عرفوا قشورًا من العلم، أو درسوا قليلاً من الفلسفة، كما قال بكون بحق.

إن الإيمان بالله ليس غريزة فطرية فقط، بل هو ضرورة عقلية كذلك، وبدون هذا الإيمان سيظل هذا السؤال الذي أثاره القرآن في وجوه المشركين قلقًا حائرًا بغير جواب، حيث قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ * [الطور: ٣٥-٣٦].

يوجّه هذا السؤال للمشركين: هل هم خُلِقُوا من غير شيء؟ أي: هل خُلِقُوا وليس لهم خالق؟ لأن كل الناس يعرفون أنه لا يوجد شيء من غير منشيء.

كل صنعة لا بد لها من صانع، وكل شجرة لا بد لها من غارس، وكل حبة لا بد لها من زارع، هذه الحقيقة المكشوفة من الضرورات العقلية، التي توافق عليها الناس في الزمن القديم والوسيط والحديث.

وإذا لم يعترفوا بهذه الحقيقة الناصعة فلا بد أن يقولوا شيئًا آخر، أقربه وأسرعه: أن يقولوا: هم الذين خلقوا أنفسهم!

وهل معقول أن يقول إنسان عاقل: إنه خلق نفسه؟! وكيف يخلق الإنسان نفسه؟! الإنسان كان قبل أن يُخلق عمدًا مطلقًا، لم يكن شيئًا مذكورًا، فكيف ينشئ العدم الوجود؟! وإذا لم يخلقوا هم أنفسهم، فمن

الذي خلق الكائنات الكبيرة من فوقهم ومن تحتهم؟ أهم خلقوها؟ كيف وهي موجودة قبل أن يُوجدوا؟ ولم يدع أحد ممن ادعى الألوهية لنفسه أو متبوعه: أنه خلق الأرض التي سطحت، والجبال التي نُصبت، والسماء التي رفعت.

هم بداهة لم يُخلقوا من غير شيء، وطبعًا لم يخلقوا أنفسهم، ولم يدع أحد منهم ولا مَن قبلهم أو بعدهم أنه خالق السماوات والأرض! فمن الخالق إذن؟! وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد، لا يملك الإنسان - إذا تُرك ونفسه - إلا أن يجيب به، كما فعل مشركو العرب أنفسهم: ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

• إلى أين المسير؟

أما السؤال الثاني: إلى أين؟ فقد أجبنا عنه في مطلبنا الأول، ومع هذا، لا بأس أن نزيد هنا على ما قلنا من قبل، فإن الماديين يجيبون عنه جوابًا يهبط بالإنسان المكرّم إلى دَرَكَ الحيوانات الدنيا، إنهم يقولون ببساطة عن مصير الإنسان بعد رحلة الحياة الحافلة: إنه الفناء والعدم المطلق؛ أن تطويه الأرض في بطنها، كما طوت ملايين الحيوانات الأخرى، وأن تعيد هذا الجسد - الذي هو الإنسان عندهم - إلى عناصره الأولى، فيعود ترابًا تذروه الرياح!.

هذه هي قصة الحياة والإنسان عند هؤلاء، كما عبروا عنها: أرحام تدفع، وأرض تبلع! ولا خلود ولا جزاء، يستوي في ذلك من عاش عُمره للناس على حساب شهواته، ومن عاش عمره لشهواته على حساب الناس، يستوي في ذلك من ضحّى بحياته في سبيل الحق، ومن اعتدى على حياة الآخرين في سبيل الباطل!.

فعلام - إذن - تميّز الإنسان على غيره من كائنات الأرض؟ ولماذا سُخِّرَ له كل ما حوله؟ ولماذا مُنِحَ من المواهب والقوى الروحية والعقلية ما لم يُمنح لغيره؟ وما سر هذا التطلُّع إلى الكمال والخلود، الذي يغمر جوانب نفسه، إذا كان مصيره التلاشي والعدم بعد أيام الحياة المعدودات؟! أما المؤمنون فهم يعرفون إلى أين يسيرون؟ يعرفون أنهم لم يُخلقوا لهذه الدنيا، وإنما خُلِقَت هذه الدنيا لهم.

يعرفون أنهم خلقوا لحياة الخلود ودار البقاء، وهم في هذه الحياة إنما يُستصلحون ويُعدَّون للدار الأخرى، ويتزوّدون منها هنا ما ينفعهم هناك، ويترقَّون في مدارج الكمال الروحي والنفسي، حتى يكونوا أهلاً لدخول تلك الدار الطيبة التي لا يدخلها إلا الطيّبون، وهناك يقول لهم خزنتها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وإنه لعسير على العقل أن يؤمن بخالق عليم حكيم، أحسن هذا الكون صنْعاً، وقَدَّرَ كلَّ شيء فيه تقديرًا، ووضع كل شيء فيه بميزان وحساب، ثم يؤمن بعد ذلك أن سوق هذه الحياة ستنفُضُ، وقد نهب فيها الناهب، وسرق السارق، وقتل القاتل، وبطش الباطش، ولا تقتصُ يدُ العدل الإلهي من هؤلاء المجرمين، ولا تنتصر للضعيف المظلوم، الذي لم يكن له نصير غير الله، ولا ملجأ غير السماء، ولا تكافئ المُحسن الذي كافأه الناس بالتنكر والاضطهاد! إن هذا لهو العبث الذي يتنزه خالق هذا الكون البديع عنه، وإنه للباطل الذي قامت السماوات والأرض بضده، وما أروع القرآن وهو يوضح هذه الحقيقة الكبيرة حين يقول:

- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ • فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ

الْحَقُّ ﴿[المؤمنون: ١١٥ - ١١٦].

- ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البجائية: ٢١ - ٢٢].

- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧ - ٢٨].

- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٨ - ٤٠]!.

• لماذا خُلق الإنسان؟

وأما السؤال الثالث، وهو الذي يجب أن يسأله الإنسان بعد أن يعرف أنه مخلوق لخالق، ومربوب لرب، وهو ببساطة: لماذا خلقت في هذه الحياة؟ ولماذا مُيّزت على سائر الكائنات الأخرى؟ وما مهمتي فوق الأرض؟.

فالجواب عنه عند المؤمنين حاضراً: إن كل صانع يعرف سرَّ صنعته: لماذا صنعها؟ ولماذا صنعها على نحو معين دون غيره؟.

والله تعالى هو صانع الإنسان وخالقه ومدبّر أمره، فلنسأله: يا رب، لماذا خلقت هذا الإنسان؟ هل خلقتة لمجرد الطعام والشراب؟ هل خلقتة للهو واللعب؟ هل خلقتة لمجرد أن يمشي على التراب، ويأكل ممّا خرج من التراب، ثم يعود كما كان إلى التراب، وقد خُتِمَتِ القِصَّةُ؟ هل ليعيش تلك الفترة القصيرة المعذّبة، ما بين صرخة الوضع وأنة

النزع؟ إذن، فما سرُّ هذه القوى والملكات التي أودعتها الإنسان من عقل وإرادة وروح؟.

وسيردُّ الله على تساؤلنا بما بيّن لنا في كتابه، كتاب الخلود: أنه خلقه ليكون خليفة في الأرض؛ وهذا واضح في خلق آدم، وما كان من تمنّي الملائكة لمنزلته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأول شيء في هذه الخلافة: أن يعرف الإنسان ربّه حقَّ معرفته، ويعبده حقَّ عبادته، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وفي هذه الآية جعلت معرفة الله هي الغاية من خلق السماوات والأرض.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ • مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا • إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

إن المتأمل في هذا الكون الذي نعيش فيه، يرى كل شيء فيه يحيا ويعمل لغيره، فنحن نرى أن الماء للأرض، والأرض للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟ هذا هو السؤال.

والجواب الذي تنادي به الفطرة، وتنطق به مراتب الكائنات في هذا الكون: أن الإنسان لرب السماوات والأرض، الإنسان لله، لمعرفته، لعبادته، للقيام بحقه وحده. ولا يجوز أن يكون الإنسان لشيء آخر في الأرض، أو في الأفلاك؛ لأن كل العوالم العلوية والسفلية مسخرة له، وتعمل في خدمته كما هو مشاهد، فكيف يكون هو لها أو يعمل في خدمتها؟!.

ومن هنا كانت عبادة الإنسان لقوى الطبيعة ومظاهرها من فوقه ومن تحته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والأنهار، والأبقار، والأشجار، ونحوها؛ قلبًا للوضع الطبيعي، وانتكاسًا بالإنسان أي انتكاس!.

والإنسان - إذن - بحكم الفطرة ومنطق الكون، إنما هو لله سبحانه لا لغيره، لعبادته وحده، لا لعبادة بشر ولا حجر، ولا بقر ولا شجر، ولا شمس ولا قمر، ولا لجنٍّ ولا مَلَك، وكل عبادة لغير الله إنما هي من تزيين الشيطان عدو الإنسان.

* * *

هل يعيش الإنسان بغير دين؟ وأي دين يرتضيه الإنسان لنفسه؟



هذا سؤال مهم، بل في غاية الأهمية؛ هل يمكن أن يعيش الإنسان بغير دين؟.

بعض الناس قالوا: نعم. وهم يعيشون بغير دين، كتابي أو وثني، سماوي أو أرضي أو وضعي، أولئك هم (المُلحدون) الذين ينكرون وجود إله خلق هذا الكون، وخلقهم، وخلق الناس جميعًا قبلهم وبعدهم.

ويقول هؤلاء الملاحدة: ليس صوابًا أن الله هو الذي خلق الإنسان، بل الصواب أن الإنسان خلق الله! يعنون أن فكرة (الله) أو (الألوهية) الخالقة للكون، فكرة اخترعها ذهن الإنسان، أو عدة أذهان توافقت فيما بينها على هذه الدعوى الكبيرة، التي ليس بأيدينا أيّ دليل قاطع عليها.

فإذا سألت هذا الإنسان الملحد: ما أنت؟ قال لك: أنا إنسان.

فإذا سألته: ما الذي ميّزك أيها الإنسان عن الحيوانات الضخمة والوحوش الكاسرة والطيور الجارحة والجميلة من حولك؟ قال: ميزتي هي العقل، أنا أفكر بعقلي، وهي لا عقل لها تفكر به.

فإذا قلت له: أرني عقلك هذا، لأراه وأعرفه وأتحسّسه. قال لك: عقلي مخبوء في رأسي، ولا يمكن أن أراه، ولا أن تراه، ولكن نلمس آثاره

ومعارفه في هذا الكون، وفي هذه الحياة، وفي غيرها، مما نعلمه، وما لا نعلمه، بيّنة ظاهرة. ألا ترى هذه الكتب الكبيرة والصغيرة؟ ألا ترى هذه المخترعات العجيبة؟ إنها من صنع العقل.

فإذا قلت له: إذا كان عقلك أنت أيها الفرد الصغير لا نستطيع أن نُمسِكَ به، أو نحجّمه، ونعرف قدره ووزنه، فكيف بعقل هذا الكون الكبير من فوقنا، ومن تحتنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، في السماوات وفي الأرض، ما نعلمه وما لا نعمله؟! كيف يمكننا أن نعرف العقل الذي يدبر أمر هذه الكائنات الموجودة، الكبرى والصغرى، العليا والسفلى، الناطقة والصامتة، الظاهرة والباطنة، العاقلة والمسخرة؟! من الذي أبدع هذه الكائنات حق الإبداع، في الأرض والسماوات العلا؟ من علّم الجمادات والأفلاك، والعقلاء، والحيوانات البرية، والحيوانات البحرية، والزواحف، والأسماك والحيتان، والأشجار والزرع، والحشائش والنباتات الجميلة الرائعة في البر والبحر؟ من نظّمها ورتبها هذا الترتيب الذي يقف أمامه الإنسان العبقري متعجبًا مبهورًا صاغرًا، لا يستطيع أن يقول كلمة، إلا كلمة (سبحان الله)، سبحان من خلق وصوّر؟!.

ألا تسمع قول أبي نواس الشاعر العربي الذي عرّف بسكره ولهوه، يقول^(١):

تأمل في ربيع الأرض وانظر	إلى آثار ما صنّع المليكُ
عيونٌ من لجينٍ شاخصاتٌ	بأبصارٍ هي الذهبُ السَّبيكُ
على قصب الزبرجدٍ شاهداتٌ	بأنَّ الله ليس له شريكُ!

(١) ذكر هذه الأبيات ابن كثير في البداية والنهاية (٢٥٥/١٠) نشر: دار إحياء التراث العربي، ط ١.

أو تسمع لقول أبي العتاهية الشاعر الزاهد يودع ميتًا:
 ألا إننا كلُّنا بائدٌ وأي بني آدم خالِدٌ؟
 وبدوهُم كان من ربِّهم وكلُّ إلى ربِّهم عائدٌ!
 فيا عجبًا كيف يُعصى الإل أم كيف يجحده الجاحدُ؟
 والله في كلِّ تحريكة وفي كلِّ تسكينة شاهدُ!
 وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه الواحدُ!

• إلغاء الدين من حياة الإنسان وفكره ووجدانه:

هناك أناس لم يفكروا إلا فيما هو مرئيٌّ لهم، معلوم علمًا حسيًّا، عرفوه بإحدى حواسهم الخمس - وربما كانت أكثر من خمس -؛ فما عرفوه بهذه المدارك الواضحة لكل الناس فهو المعروف، وما خرج عن هذه الدائرة فهو المجهول.

فلا يقبل هؤلاء أن تناقشهم في أمر فوق ما يُبصر، وما يُسمع، وما يُشم، وما يُذاق، وما يُلمس.

لا تقل لهم ولا لغيرهم: إن هناك شيئًا اسمه (الدين)، يحمله الإنسان فكرة في رأسه، وعقيدة راسخة في نفسه، وسلوكًا منتظمًا في حياته، مبنيا على أساس هذه الفكرة الرئيسية، وعلى أساس هذه العقيدة، ويتكيف السلوك تبعًا للأوامر والنواهي، التي يجيء بها الدين، ويصبح المرء متديّنًا، بمقتضى التمسك بعقيدته وعبادته، وشريعته وأخلاقه.

والأديان أنواع، بعضها مسالم للأديان الأخرى، ومعظمها يحارب بعضها بعضًا، ويناقض بعضها بعضًا، ويتصارع بعضها مع بعض.

فهناك الأديان الوثنية، كالبودية في الصين وكوريا، وكالهندوسية في الهند.

وهناك الأديان التوحيدية، التي ترفض تعدد الآلهة، وتعلن أن الإله إله واحد، كالإسلام.

وهناك الأديان الكتابية: اليهودية والمسيحية والإسلام، التي لها كتب من عند الله، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، وكلها بدأت بالتوحيد، ولكن بعضها انحرف في مسيرته.

وهناك الأديان غير الكتابية، التي لم ينزل الله لها كتابًا مع نبي مرسل إلى الأمة أو إلى العالم.

وهناك من يرفضون فكرة التدين أو الدين نفسها، من أساسها! إنها فكرة الملحدين، الذين ينكرون وجود الله، ولنبدأ بمناقشة هؤلاء أولاً.

• مناقشة الملحدين الذين ينكرون وجود الإله:

يوجد في الدنيا أناس لا يؤمنون بالدين، فلا عقيدة في القلب، ولا فكرة في الرأس، ولا شعور بأي طريقة من الطرق؛ لأنهم:

لا يؤمنون بالأسس والدعائم، التي يقوم عليها الدين، أي دين.

لا يؤمنون بوجود إله للكون، واحد أو متعدد، فليس لهذا الكون خالقٌ أنشأه من عدم، أو سَوَّاه ونظَّمه، أو أجرى سننه وقوانينه العامة، محكمة إحصاءًا تامًّا، فمن رعاها رعته، ومن حفظها حفظته، ومن ضيَّعها ضيعته، مثل: قوانين الإغراق والإحراق، والأكل والشرب، والنوم والتنفس، والقتل والجرح، وغيرها، مما يسمُّونه: سنن الله في الكون، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

ناقشني واحد من هؤلاء مرة، فقال لي: هل تؤمن بالدين، أي دين؟ قلت له: نعم، أؤمنُ بالأديان السماوية كلها، التي أنزلها الله على أنبيائه الكبار: موسى وعيسى ومحمد، أصحاب الكتب المعروفة: التوراة والإنجيل والقرآن.

قال: وتؤمن بأن هذا الكون له إله، وهو إلهك أيضًا؟ قلت له: نعم، وأوقن بذلك يقينًا لا يعتريه شك.

قال: وهل رأيت هذا الإله بعينيك؟ وهل يمكن أن تراه أنت، وأراه أنا، ويراه غيرنا كما نرى الموجودات حولنا؟ قلت له: أنا لم أره بعيني رأسي؛ لأنهما محدودتا الإدراك، وتحول دون رؤيتهما للأشياء حوائل، فهما لا تريان الأشياء البعيدة، مع أنها موجودة، وحين تركب الطائرة لا ترى المدن الكبيرة جدًا وأنت محلّق في الأعالي، وإذا رأيتهما أحيانًا فكأنها علب الكبريت!.

وكذلك الأشياء الصغيرة لا تراها إلا بالآلات المكبرة (الميكروسكوب)، والأشياء البعيدة لا تراها إلا بالتليسكوب. وعدم رؤيتك لها بعينك لا يعني أنها غير موجودة.

ولذلك نحن المؤمنون بالله نقول: إننا سنرى ربنا يوم القيامة، ولكن بأعين أخرى غير هذه الأعين الدنيوية، التي لم تعد تصلح لهذه الحياة الأخروية السعيدة، ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

ما رأي الملحدين في هذا الكون العظيم البديع الذي هو في الحقيقة أعظم آية على وجود خالقه، ومدبره، ومنظم أمره، على أبداع نظام، وأروع إحكام؟! ماذا يقول هؤلاء الملاحدة الجاحدون المنكرون لوجود الله في هذا الكون، الذي يقول المؤمنون: إن الله أحسن فيه خلق كل شيء، وأتقن فيه صنع كل شيء؟.

إنهم يقولون بكل بساطة: الكون خلق نفسه! وكيف يخلق الشيء نفسه؟! العدم المطلق كيف يخلق وجودًا؟ وهو ليس مجرد وجود، ولكنه وجود متنوع ومتفرع، ومتدرّج ومتكامل، يأخذ بعضه من بعض، ويستمدُّ كلُّ جزء منه من الآخر أو الآخرين أو الآخرين.

هذا الوجود الكبير الهائل، الذي لا نرى إلا القليل منه، أعني من الوجود المادي، من فوقنا، ومن تحتنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، ومن بين أيدينا، ومن خلفنا. هذا الوجود في الأرض، وما في بطنها، والسموات وما بينها، وما تحت الثرى. هذه الكواكب التي نرى نورها بأعيننا، وبيننا وبينها مئات أو آلاف أو ملايين السنين الضوئية. السنة الضوئية يقيسونها بسرعة الضوء، وهي (٢٩٩,٧٩٢,٤٥٨) م/ثانية.

قالوا: إننا لا نرى إلا ثلاثة في المئة (٣٪) مما في هذا الكون بكل ما أصبح في أيدينا من مقاييس هائلة، ومن أدوات خطيرة، ومن آلات قرّبت البعيد جدًّا، وكبّرت الصغير آلاف المرات.

كل الناس في العالم حاولوا أن يشكّكوا في عقلية هؤلاء الملاحدة الجاحدين؛ قالوا: إن هؤلاء فقدوا عقولهم التي خلقهم الله بها، وبها يهتدون إلى معاشهم، وإلى التعامل مع أصناف الناس الآخرين.

قال الملاحدة - وهم قلة - للمؤمنين - وهم كثرة بالغة - : بأي وسيلة عرفتم أن هذا الكون لم ينشأ وحده؛ إنما أنشأه خالق، هو الذي شاء أن يخلقه، وقدّر أن يخلقه، كيف شاء، حدد موعد خلقه، ووضع له القوانين التي سيمضي عليها، وخلقه أصنافاً شتى، منهم الظاهر، ومنهم الباطن، منهم الخير، ومنهم الشرير، ومنهم الذي يصلح لكلا الأمرين؟.

ثم هذا الخالق الكبير العظيم، الذي تقولون: إنه لا حد لعظمته، ولا مقدار لكبره، ولا يستطيع أحد وصفه؛ لأنه لا يشبه شيئاً ممّا نعرفه نحن، ولا من قبلنا، ولا من هم مثلنا، ولا من هم أقوى منا، من خلائق أخرى، قد تكون موجودة، ولكننا لا نراها، فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] كما يقول القرآن، ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الصمد: ٣ - ٤].

ليس هو مثل هذه المخلوقات التي نعرفها من الحيوانات والوحوش والزواحف والحيوانات البرية والمائية، والكائنات الصغيرة، التي لا تُرى إلا بأجهزة التكبير.

هذا الكائن الأعلى، الذي تقولون: إنه خالقنا، وخالق كل ما حولنا، ومن حولنا، مما نعرف، وما لا نعرف، مما نعقل، وما لا نعقل، مما ندري، وما لا ندري، هو الذي تسمونه بلغتنا، التي نقرأ بها ونكتب: (الله).

• دلالة الفطرة السليمة:

قال الملاحدة، وهم قوم صرحاء، مجاهرون بما يناقض عقائد الأكثرين في بلادهم، وفي العالم كله من حولهم: هاتوا لنا دليلاً واحداً، يثبت أن لهذا العالم ربّاً خلقه، وهو يحفظه ويمدّه بكل ما يحتاج إليه، ويعينه على الاستمرار، ويمدّه بكل أسباب النمو والبقاء والتحدي، هاتوا لنا - أيها المؤمنون - دليلاً واحداً يقنعنا، ويقنع غيرنا من الجاحدين: أن لهذا الكون كلاً في بَرّه وبحره وجوّه، وفي أرضه وسماؤه، وما فوقها، وفي كل جوانبها المنظور منها، وغير المنظور: ربّاً، هو الخالق البارئ المصور!.

قال المؤمنون بالله من أصحاب الأديان المختلفة: عندنا بدل الدليل الواحد عدد من الأدلة؛ أول دليل نرفعه أمامكم، ونحن نشعر به في أعماقنا، ونحس به كأنما يتكلم في صدورنا، بلغة بسيطة نسمعها ونفهمها ونتذوقها، سهل علينا منطقتها، إنه صوت الفطرة، الطبيعة التي خلقنا الله عليها، لم يخلقها آباؤنا ولا أمهاتنا، ولا المعلمون أو المعلمات في مدارسنا، بل هي مغروسة غرساً في كيان كل مِنّا ووجدانه.

قد يغالط الإنسان نفسه، فيحاول اجتثاث هذا الصوت، وإسكاته

وهو جهير، سرعان ما ينطق إذا سأل سائل فجأة: من الذي خلق السماوات والأرض، وخلقك وخلق أباك وجدك؟ فهناك يقول بسرعة: خلقهم الله سبحانه!.

ربما تنطمس فطرته إذا تراكت عليها الشهوات الهابطة، والغفلات المضلّة، والأهواء الضارية، ولكنها سرعان ما تجد معينات تنشق من النفس ومن الحياة، فتُنطقها وتُنعمشها، وتُحييها وتُنمّيها.

وقد يجترئ الإنسان على الإنكار والجحود، حين تغرّه نفسه الأمّارة بالسوء، أو يغرّه الشيطان الذي يكيد له كيّدًا، أو يغرّه أصدقاء السوء، الذين لا يضمرون له إلا الشر، ولكن سرعان ما تزول هذه النزغات السيئة من النفس وممّا حولها، وخصوصًا حينما تنزل بالإنسان بلية من بلايا الدنيا، فإذا الدنيا حوله تترنح، وإذا الحياة كلها تتغير، وإذا الرياح تهبّ، وإذا الأرض تهتزّ، وإذا الموج يضطرب، وإذا السفينة تموج، وإذا البحر يهيج، وإذا الموت يقترب، وإذا كل ما حولك يضيق، هنا تظهر الفطرة الحقيقية، حين ذاب الطلاء الكاذب، واختفى من فوق السطح، وظهرت طبيعة الإنسان الحية الناطقة تنادي: يا رب، يا رب، نجّنا من هذا الكرب.

وهو ما صورته القرآن في سورة يونس، حين قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

هذا الركن الركين في داخل الإنسان هو الذي نسمّيه (الفطرة) أو الطبيعة، التي خلق الله عليها كل الناس، سواء أكانوا متعلمين أم أميين، ما لم تغيّرْها عوامل بيئية من ناحية الآباء أو الأمهات، أو العائلات، أو

المدرسة، أو البيئة التي تفسد الفطرة وتعلي عليها الأمور المتكلفة الفجة، التي اصطلحت عليها، واختارتها البيئات الفاسدة.

وقد حذرنا القرآن الذي أنزل على النبي الخاتم محمد ﷺ، من انقلاب الفطرة إلى ضدها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال رسول الإسلام محمد ﷺ الذي ختم الله به النبيين في الفطرة: «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(١).

• دلالة الكون على الله:

كما أن الفطرة البشرية السليمة إذا تركت ونفسها بدون مؤثر، اهتدت إلى وجود الله سبحانه، فإن العقل السليم بأدنى تأمل وتفكر مجرد عن الهوى والتقليد والعصبية، ينتهي حتماً إلى نتيجة ناصعة هي: وجود الله ﷻ. ومجال التفكير والتأمل للعقل هو هذا الكون الكبير، بسماواته وأرضه، بإنسانه وحيوانه، ونباته وجماده، بكل ما فيه من الذرة إلى المجرة، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة.

والتأمل في هذا الكون - بما فيه الإنسان - يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى ربه الأعلى، هذه الأدلة هي: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية. إن كل شيء في هذا الكون الكبير - إذا تأمله الناس حق التأمل - يأخذ بأيديهم إلى الله، ويدلهم على وجوده، بل على وحدانيته وتفرد بالملك والتدبير، كما يدلهم على أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

والإنسان نفسه آية فريدة، دالة على الله، فهو وحده عالم خاص، اجتمع له من حسن الصورة، ومن قوى الإدراك والشعور والبصيرة ما لم يحظ به غيره.

ولهذا يوجّه العقلاء الإنسان إلى النظر والتفكير في نفسه، وفيما يحيط به من عوالم، موقنين بأن هذا النظر والتفكير جدير بأن يهديه إلى الحق، ويسوقه إلى الخير، بما يرى ويلمس من آيات الله في الأنفس والآفاق.

وكذلك كتب السماء التي أنزلها الله على الرسل، ويؤمن بها المؤمنون بالأديان السماوية، كلها تحض على ما دعا إليه ذوو العقل والحكمة في العالم من ضرورة النظر فيما اشتمل عليه الكون من آيات وأدلة، عرفها العلماء ودرّسوها، وجعلوها مناراتهم الهادية في الدلالة على وجود رب كبير لهذا العالم.

• الأدلة الكونية الأربعة:

والمتمامل في هذا الكون - بما فيه الإنسان - يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى ربه الأعلى. هذه الأدلة هي: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية. وسنكتفي هنا بالحديث عن دليلين من بين هذه الأدلة، وهما: الخلق، والتسوية.

١ - دليل الخلق:

المراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث والاختراع، أي: إبراز الشيء من العدم إلى الوجود.

وذلك مثل: خَلَقَ الحياة في الكائنات الحية على ظهر الأرض التي بَثَّ فيها من كل دابة، وأنبت فيها من كل زوج بهيج.

ومثل: خلق الإنسان العاقل الذي لم يكن شيئًا مذكورًا ثم كان، وهو ما نبّه عليه القرآن في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢].

ومثل: خلق السماوات والأرض، وهو أكبر من خلق الناس، وقد دلّنا علم الفلك الحديث على عظم الأجرام العلوية، وسعة المسافات بينها، حتى إنها لتقاس بملايين السنين الضوئية.

تُرى، مَنْ خالق الحياة على هذه الأرض؟ وَمَنْ خالق هذا الإنسان العاقل المفكّر؟ وَمَنْ خالق هذا الكون كله بأرضه وسمائه؟ هل وُجدت الحياة، وُجد الإنسان، وُجدت المخلوقات العلوية والسفلية وحدها بلا مُوجد، أم لا بد لها من خالق أوجدها؟ وَمَنْ هو؟.

ماذا يقول الملحدون في ظهور الحياة لأول مرة على هذا الكوكب؟.

إن ظهور الحياة من المادة الصمّاء وَضَعَ الماديين أمام مشكلة لم يجدوا لها حلًّا ولا تفسيرًا، إلا على نحو ما قال الشاعر:

وباتَ يقدحُ طولَ الليلِ فكرته وفَسَّرَ الماءَ بعدَ الجَهدِ بالماءِ^(١)

من ذلك ما قاله بعضهم: إن الحياة انتقلت إلى الأرض من العالم العلوي عن طريق نيزك من النيازك الهائمة في الفضاء، ولكن السؤال يبقى: ومن خَلَقَ الحياة هناك في عالم الأفلاك، أو في أي كوكب من الكواكب؟.

وقال بعضهم: إن المادة فيها طبيعة الحياة، بعد تركيب وتناسق خاص. ولكن السؤال يبقى أيضًا: وَمَنْ رَكَّبَهَا ونَسَّقَهَا وهي مادة عمياء صمّاء؟.

(١) من شعر ابن الوردي.

«ولا يسع العقل في أمر ظهور الحياة إلا أن يأخذ بأحد قولين: فإما أنها خاصة من خواص المادة ملازمة لها، فلا حاجة بها إلى خالق مريد. وإما أنها من صنع خالق مريد يعلم ما أراد.

فإذا كان العالم كله مادة، ولا شيء غير المادة، لزم من ذلك أن المادة أزلية أبدية، لا أول لها ولا آخر، وأنها موجودة منذ الأزل بكامل قواها، وجملة خصائصها، وأن خصائصها ملازمة لها حيث كانت، بدون تفرقة بين المادة في هذا الكون من الفضاء، والمادة في غير هذا المكان.

ولا معنى - إذن - لظهور الحياة في كوكب دون كوكب، وفي زمان دون زمان، ولا معنى لأن تظل خصائص الحياة بلا عمل ملايين الملايين من السنين، بل فوق ملايين الملايين من حساب السنين، ثم تظهر بعد ذلك في زمان يُحسب تاريخه بالآلاف، ولا يقاس إلى الأزل الذي لا يدخل في حساب.

فلماذا تأجلت خصائص الحياة كل هذا الزمان الذي لا يدخل في حصر ولا إحصاء؟ ولماذا اختلف التوزيع والتركيب في أجزاء الفضاء وآماد الزمان؟ ولماذا جاءت هذه الحياة مصادفة، ثم دامت هذه المصادفة، بكل ما يلزم لها من تدبير، وليس للمادة الصماء تدبير؟.

على العقل أن يُبدي أسبابه لترجيح القول بهذه الفروض على القول بظهور الحياة من صنع خالق مريد. ولا نعرف أسبابًا لترجيح الفرض العسير على الفرض اليسير.

والفرض اليسير هو الفرض الآخر، وهو أن الحياة ظهرت من صنع خالق مريد^(١).

(١) الله، للأستاذ عباس محمود العقاد، ص ٤.

إن هذا الفرض اليسير هو الذي يحلُّ لغز ظهور الحياة من المادة الصمّاء، أو بعبارة أخرى خروج الحي من الميت، ويحل لغز الوجود كله، حين يستجيب المرء إلى صوت البدهاة والعقل، ويرد الخلق والأمر كله إلى الله:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَإِنِّي تَوَفَّكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

- ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

- أسماء عدة لدليل الخلق:

هذا الدليل يسمى دليل (الخلق)، أو دليل (الإبداع)، أو (الاختراع)، كما سمّاه فيلسوفنا الكبير ابن رشد (ت ٥٩٥هـ).

وقد يوجد في صورة أخرى، فيسمى دليل (الحركة)، سواء أكانت الحركة بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، أم الانتقال من حال إلى حال، أو الحركة بمعنى الانتقال من حيّز الإمكان إلى حيّز الوجود.

وفحوى الدليل: أن كل متحرك لا بد له من محرّك، وأن هذا المحرّك لا بد أن يستمد الحركة من غيره. وهكذا إلى أن يقف العقل عند محرّك أزلي قائم بذاته، غير محتاج إلى غيره، وإلا لزم الدّور أو التسلسل إلى ما لا نهاية، وكلاهما باطل، وذلك المحرّك هو الله.

وقد عرضه المتكلّمون في صورة ثالثة وسمّوه دليل (الحدوث).

قالوا: العالم متغيّر، وكل متغير حادث، وكل حادث لا بد له من محدث. ولا بد أن يقف العقل عند محدث غير حادث، وإلا لزم الدّور أو التسلسل المحالان، وذلك المحدث هو الله.

والعلم الحديث يقر بحدوث العالم، ويرجع حدوثه إلى ملايين
يقدرها من السنين.

وعرضه الفلاسفة الإسلاميون - كالفارابي وابن سينا - في أسلوب آخر
وسمّوه (دليل الإمكان).

وفحوى هذا الدليل: أن الموجودات - حسب القسمة العقلية - إما أن
تكون واجبة الوجود جميعًا - وواجب الوجود هو الذي لا يتصور العقل
عدمه، لاستلزام المحال - وإما أن تكون ممكنة الوجود، على معنى: أنها
يمكن أن توجد وألا توجد، فليس هناك علة لذاتها تقتضي وجودها أو
عدمها، وإما أن يكون بعضها واجبًا وبعضها ممكنًا.

ومحال أن تكون كلها واجبة الوجود؛ لأنها بين متحركة تحتاج إلى
محرك، وبين مركبة تحتاج إلى علة لتركيبها، ولا بد أن تسبقها أجزاءها.
ومحال أن تكون كلها ممكنة الوجود؛ لأن الممكن يحتاج إلى علة
تخرجه من حيز الإمكان إلى حيز الفعل.

بقي الفرض الثالث: وهو أن يكون بعضها ممكن الوجود، وهو هذا
العالم، وبعضها واجب الوجود، وهو الله، وهو السبب الأول لوجود هذا
العالم. ومن المحال أن يكون مسبوقًا؛ لأن الذي يسبقه يكون أولى بالوجود.

٢ - دليل التسوية:

وإذا كان الخلق يدل على الله، فالتسوية أدلُّ عليه، والتسوية أخص من
الخلق، إذ من الممكن أن يُخلق الشيء غير مسوّى.

وهذا الدليل أقرب إلى ما سمّاه فليسوفنا الإسلامي ابن رشد: دليل
(العناية)، وهو الدليل الآخر الذي اهتم به القرآن مع الاختراع.

ومعنى تسوية الشيء: إحسان خلقه، وإكمال صنعته، بحيث يكون مهياً لأداء وظيفته، وبلوغ كماله المقدّر لنوعه، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه، وجعله مستويًا معتدلاً، متناسب الأجزاء، بحيث لا يحصل بينها تفاوت يخل بالمقصود منها.

والقرآن يعبر عن هذه التسوية بعبارات مختلفة الألفاظ، متقاربة الدلالة على المقصود، مثل:

- الإحسان في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

- والإتقان في قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

- وإعطاء كل شيء خلقه في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، ومعنى إعطائه خلقه: إعطاؤه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له.

- كما عبر القرآن عن هذه التسوية بنفي التفاوت في خلق الله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣].

وهذه التسوية ظاهرة في الكائنات كلها على وجه العموم، وفي الكائنات الحية على وجه الخصوص، وفي الإنسان على وجه أخص.

أ - فالأرض - مثلاً - قد سوّاها صانعها، بحيث تصلح مهادًا ومستقرًا لنوع الإنسان، فلهذا مدّها وبسطها، وجعلها ذلولاً، وألقى فيها رواسي كالأوتاد لها، حتى لا تميد، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، فلو كانت قشرة الأرض كلها صخرية، أو كلها يابسة، أو كلها محيطات، ما صلحت للإنبات وإخراج الثمرات.

ولو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتصت ثاني أكسيد الكربون والأكسجين، ولما أمكن وجود حياة للنبات.

ب - وكل ما على الأرض من كائنات حية قد سُويّت خلقته، وأحكمت صنعته، بحيث يؤدي وظيفته في يسر وسهولة.

فالجمل - مثلاً - قد أُعطي الصورة الخَلقية التي تلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء، فلهذا خُلق برقة طويلة، تُعلي رأسه، وتُنأي بعينه عن غبار الرمال، كما مُنح شفة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه، وأُعطي سنامًا يخزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يومًا في الصحاري القاحلة، ولم تنته رجله بحافر يغوص في الرمال كحوافر الخيل والبغال والحمير، بل انتهت بخُفٍّ يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها، ولهذا سمّوه (سفينة الصحراء). وهكذا نجد أثر التسوية في كل الأحياء.

فكل حي أُعطي الوسائل التي يحصل بها على غذائه الملائم، وأُعطي من الأجهزة ما يهضم به هذا الطعام.

فالحوانات المفترسة أُعطيت من الأنياب والمخالب ما تتمكّن به من الافتراس، كما كوّن جهازها الهضمي بحيث يهضم اللحم النيء.

والأنعام التي تأكل العُشب أُعطيت كَرشًا كبيرًا يُعد بمنزلة (مخزن) لما تلتهمه بسرعة، إلى أن تجترّه وتُعيد مضغه مرة أخرى.

والطير أُعطيت مناقير تساعد على التقاط غذائها، واتخذ المنقار صورة من الطول أو القصّر أو الاستدارة أو غيرها؛ بما يناسب نوع الغذاء الذي يلائمه.

كما زُوّدت الكائنات الحية جميعها بأسلحة مناسبة تدافع بها عن نفسها في صراع البقاء بينها وبين غيرها. فالناب سلاح، والمخلب سلاح، والقرن سلاح، والشّم سلاح، والمنقار المدبّب سلاح، والزعانف الحادة

سلاح، وسرعة العدو سلاح، والقدرة على الطيران سلاح، والقدرة على الاختفاء سلاح، ولولا هذه الأسلحة التي زُوِّدَتْ بها تلك الأحياء، لأفنى قُوَّيُّهَا ضَعِيفَهَا، وأباد كبيرُهَا صغيرَهَا.

ج - تسوية الإنسان: وحين ندع الطبيعة وندع الحيوانات وما سُوِّيتَ له، ونرتقي إلى الإنسان، نجد مظاهر التسوية وأماراتها أوضح وأعظم، فقد خُلِقَ الإنسان في أحسن تقويم.

إن الإنسان قد خُلِقَ لمهمة جليلة، وهي السيادة على الأرض والخلافة فيها، ولهذا أُعْطِيَ من الخصائص والمميزات، والأجهزة المادية والروحية، ما يعينه على أداء وظيفته، ويسر له سبيل مهمته.

ولو نظرنا إلى التكوين البدني للإنسان لرأينا العجب العجيب من عظمة التسوية، ودقة التصميم، وتناسق الأجهزة المختلفة، التي لا يُعد شيئاً بجانبها تصميم أي جهاز يخترعه إنسان منا، فتُدْهَش له العقول، وتنطلق بمدحه الألسنة والأقلام.

الجهاز العضلي، والجهاز الهضمي، والجهاز الدموي، والجهاز التنفسي، والجهاز التناسلي، والجهاز اللمفاوي، والجهاز العصبي، والجهاز البولي، وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر.. كل منها آية من الآيات، تشهد بها العقول، وتخضع لها القلوب.

تقول مجلة العلوم الإنجليزية: «إِنَّ يَدَ الْإِنْسَانِ فِي مُقَدِّمَةِ الْعَجَائِبِ الطَّبِيعِيَةِ الْفَذَّةِ، وَإِنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ جَدًّا - بَلْ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ - أَنْ تُبْتَكَّرَ آلَةُ تَضَارِعِ الْيَدِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الْبَسَاطَةِ وَالْقُدْرَةِ وَسُرْعَةِ التَّكْيُفِ، فَحِينَمَا تَرِيدُ قِرَاءَةَ كِتَابٍ، تَتَنَاوَلُهُ بِيَدِكَ، ثُمَّ تُثَبِّتُهُ فِي الْوَضْعِ الْمَلَائِمِ لِلْقِرَاءَةِ، وَهَذِهِ الْيَدُ هِيَ الَّتِي تُصَحِّحُ وَضْعَهُ تَلَقَّائِيًّا، وَحِينَمَا تُقَلِّبُ إِحْدَى صَفْحَاتِهِ تَضَعُ

أصابعك تحت الورقة، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقة، واليد تُمسِك القلم وتكتب به.

وتستعمل كل الآلات التي تلزم الإنسان، من ملعقة، إلى سكين، إلى آلة الكتابة، وتفتح النوافذ وتغلقها، وتحمل كل ما يريده الإنسان.

واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة، وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منهما^(١).

«وإنَّ جزءاً من أُذُن الإنسان - الأذن الوسطى - هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنيّة (قوس) دقيقة معقّدة، متدرّجة بنظام بالغ في الحجم والشكل، ويُمكن القول بأنَّ هذه الحنيّات تشبه آلة موسيقية. ويبدو أنّها مُعدّة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ بشكلٍ ما كُلِّ وَقْع صوتٍ أو ضجّة، من قصف الرّعد إلى حفيف الشجر. فضلاً عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية في الأوركسترا ووحدتها المنسجمة»^(٢).

«ومركز حاسة الإبصار في العين التي تحتوي على مئة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء - وهي أطراف الأعصاب - ويقوم بحمايتها الجفن والأهداب، الذي يقيها ليلاً ونهاراً، والذي تعتبر حركته لا إرادية، الذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال. وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين، أما السائل المحيط بالعين - والذي يُعرف باسم الدموع - فهو أقوى مُطهّر»^(٣).

(١) الله والعلم الحديث، نقلاً عن: ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب (٣٨٤٨/٦)، دار الشروق - القاهرة، الطبعة: السابعة عشرة، ١٤١٢هـ.

(٢) العلم يدعو إلى الإيمان، الفصل الثامن (غرائز الحيوانات)، نقلاً عن: ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب (٣٨٤٨/٦).

(٣) الله والعلم الحديث، نقلاً عن: ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب (٣٨٤٨/٦).

«وجهاز الذّوق في الإنسان هو اللسان، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلقات غشائه المخاطي، ولتلك الحلقات أشكال مختلفة؛ فمنها الخيطية والفطرية والعدسية، ويغذي الحلقات فروعٌ من العصب اللساني البلعومي، والعصب الذوقي، وتتأثر عند الأكل بالأعصاب الذّواقّة، فينتقل الأثر إلى المخ.

وهذا الجهاز موجود في أول الفم، حتى يمكن للإنسان أن يلفظ ما يحس أنه ضار به، وبه يحس المرء المرارة والحلاوة، والبرودة والسخونة، والحامض والمالح، واللّاذع ونحوه.

ويحتوي اللسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة، يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب؛ فكم عدد الأعصاب؟ وما حجمها؟ وكيف تعمل منفردة، وتتجمع بالإحساس عند المخ؟»^(١).

«ويتكون الجهاز العصبي - الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة - من شعيرات دقيقة، تمر في كافة أنحاء الجسم، وتتصل بغيرها أكبر منها، وهذه تتصل بالجهاز المركزي العصبي؛ فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم، ولو كان ذلك لتغيّر بسيط في درجة الحرارة، بالجو المحيط، نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة في الجسم، وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف. وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات في الأعصاب مئة متر في الثانية»^(٢).

(١) المصدر السابق (٣٨٤٩/٦).

(٢) المصدر السابق نفسه.

«ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيماوي، وإلى الطعام الذي نأكله على أنه مواد غفل، فإننا ندرك تَوًّا أنه عملية عجيبة؛ إذ تهضم تقريبًا كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها!.

فأولاً نضع في هذا المعمل أنواعًا من الطعام كمادة غُفْل، دون أي مراعاة للمعمل نفسه، أو تفكير في كيفية معالجة كيمياء الهضم له، فنحن نأكل شرائح اللحم والكربن والحِنْطَة والسّمك المقلّي، وندفعها بأي قدر من الماء.

ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التي هي ذات فائدة؛ وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة، تصبح غذاءً لمختلف الخلايا، وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية، وتعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية، وبإمكان إنتاج الهرمونات، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منتظمة، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة، وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى، للقاء كل حالة طارئة، مثل: الجوع، وتفعل ذلك كله بالرغم من تفكير الإنسان أو تعليله.

إننا نصب هذه الأنواع التي لا تُحصى من المواد في هذا المعمل الكيماوي، بصرف النظر كلية تقريبًا عما نتناوله، معتمدين على ما نحسبه عملية ذاتية (أوتوماتيكية) لإبقائنا على الحياة.

وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد، تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا، التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض! ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمرًا،

وآلا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان، كما تتلقاها الخلية المختصة. فها هنا - إذن - معمل كيماوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان.

وها هنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم، ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام»^(١).

«ومنذ الطفولة إلى سن الخمسين مثلاً، لا يُخطئ هذا المعمل خطأ ذا بال، مع أن المواد نفسها التي يعالجها يمكن أن تكون بالفعل أكثر من مليون نوع من الجزئيات، وكثير منها سام.

يقول الأستاذ (أ. ك. موريسون): إن شرح العمل العجيب الذي يقوم به معمل المعدة، ومثل هذه المجموعة من المعجزات، لا يوجد، ولا يمكن أن يحدث بأي حال، في غيبة الحياة. وكل ذلك يتم في نظام كامل، والنظام مضاد إطلاقاً للمصادفة، أليس ذلك من صنع الخالق؟!«^(٢).

د - على أن هناك شيئاً هو أجلُّ من كل ما ذكرناه من مظاهر التسوية في خلق الإنسان، ذلك هو العقل.

إن الإنسان لم يُمنح قوة عضلية كقوة الثور، ولا سرعة في العدو كسرعة الحصان، ولا صبراً على المشقة كصبر الجمل، ولا أجنحة يُحلق بها كأجنحة الطير، ولا أنياباً ومخالب كأنياب الأسد، ولا أعيناً ميكروسكوبية (مكبّرة) كأعين الحشرات الدقيقة، ولا بصراً تلسكوبياً

(١) العلم يدعو للإيمان، فصل: (أعظم معمل كيماوي في العالم)، نقلاً عن: في ظلال القرآن (٣٨٥٠/٦).

(٢) العلم يدعو للإيمان، أ. كريسي موريسون، ص ١٥٦.

(مقرَّبًا مكبَّرًا) كبصر الصقور، ولا غرائز هادية كغرائز النحل والنمل والحمائم الزاجل.. ونحوها.

ولكن الواقع أن الإنسان أُعْطِيَ ما هو أعظم ممَّا أُعْطِيت هذه الأمم من الحيوان والطير مجتمعة، أُعْطِيَ العقل المفكِّر، وأُعْطِيَ الروح المُبْصِر. لقد استطاع بعقله أن يستأنس الثور والحصان والجمال، وغيرها من الدواب الضخمة في جثتها، القوية في بدنها، وأن يُسَخِّرَها في حاجاته ومعيشته.

واستطاع أن يصنع لها عجلة تجرها، فتضاعف قوتها وسرعتها، وبهذا أطال الإنسان في سيقانها، وقوَّى من ظهورها.

واستطاع الإنسان بما اخترعه من أجهزة ميكانيكية أن يطوي المسافات الشاسعة في الزمن القليل، وأن يضرب بين القارات حتى جعل العالم (قريته الكبرى)، وأن يجعل كل عمله اليدوي إدارة الأجهزة والسيطرة عليها.

استطاع أن يغوص في البحار كالحياتان، وأن يخلِّق في الهواء كالطيور، بل فاق الحيتان وسبق الطيور.

لقد تحكَّم الإنسان في قوة الطبيعة، ونسف الصخور، وشق الأنهار، واستخدم البخار والغاز والكهرباء، وفجَّر - أخيرًا - الذَّرة، وغزا الفضاء الفسيح، وحاول الصعود إلى الكواكب، وصنع هذا الشيء العجيب المدهش (الكمبيوتر).

إن الإنسان لم يُمنح عينًا ميكروسكوبية (مكبَّرة) كأعين الحشرات الدقيقة، ولا بصيرًا تلسكوبيًا (مقرَّبًا مكبَّرًا) كبصر الصقر - كما ذكرنا - ولكنه استطاع بعقله أن يصنع (ميكروسكوبًا) كهربائيًا يرى به (بكتريا وفيروسات) كانت غير مرئية.

واستطاع بتلسكوبه أن يبصر (سَدِيمًا) بلغ من الدقة والصغر أنه يحتاج إلى مضاعفة قوة إبصاره مليوني مرة ليراه.

ولم يُمنح الإنسان حاسة فائقة للسمع، كما أعطيت الحيوانات التي تسمع أصواتًا خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا، ولكنه استطاع أن يسمع بالآلات أصواتًا على بُعد أميال، كما لو كانت فوق طبلة أذنه، ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يُسجِّل وقع شعاع الشمس.

فهل يكون كل هذا العمل العجيب للعقل الإنساني ليس إلا نتيجة تفاعل في المادة - التي يتكون منها الجسم - وقع بالمصادفة العمياء؟!.

• ما موقف الماديين أمام هذه الأدلة؟!

والآن بعد هذا العرض والإيضاح، ما موقف الماديين المنكرين أمام دلالة الكون الصادقة وآياته الناطقة؟ ما موقفهم أمام البرهان الكوني بشعبه وفصائله، أمام ما ذكرنا منها وما لم نذكر؟ أيجحدون الخلق في هذا العالم؟ أم يجحدون التسوية والإحكام؟.

إنهم إن جحدوا ذلك فقد أنكروا البداهة والحس والمشاهدة، وأنكروا كل آثار العلم وتجاربه وملاحظاته.

أم تراهم يقرُّون بالخلق والتسوية، ثم يقفون عند هذا الحد؟ فأبي منطق إذا يحتكمون إليه، أو أي علم يستندون إليه؟ أخلق ولا خالق، وتسوية ولا مسوؤ؟!.

أما العقل والعلم والبصيرة والمنطق، فلا تملك إلا أن تتلو قول الله جلَّ شأنه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى • الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى • وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى •

- زعم المصادفة:

سيقول الماديون المنكرون لوجود الله: إن وجود الخالق الذي يؤمن به المتدينون، ليس ضرورة عقلية لتفسير ما في الكون من خلق وتسوية - مما ذكرنا - وتقدير وهداية لم نذكرها، إذ يمكن أن يكون كل هذا العالم بما فيه من الحياة والعقل، وما فيه من الإحكام والتناسق والتوازن الذي تحكمه سنن مطردة، وقوانين في غاية الدقة، إنما وُجد بمحض المصادفة والاتفاق والاعتباط.

- وضربوا لذلك مثلاً: صندوقاً من الحروف الأبجدية، يُعاد تنضيده مئات المرات، وألوف المرات، وملايين المرات، على امتداد الزمان الذي لا تحصره السنون ولا القرون، فلا مانع أن تُسفر هذه التنضيدات المتكررة في مرة من المرات عن مقالة جيدة، أو قصيدة رائعة، ولا عمل في إتقان حروفها على هذه الصورة لغير المصادفة المحض.

- الرد على دعوى المصادفة:

وردُّنا على هؤلاء:

أولاً: إن القول بالصدفة والاعتباط ينافي البداهة والفطرة، التي تؤمن بالسببية إيماناً أولياً لا يحتاج إلى تعلُّم أو تلقين، إن الذي أودع في ذات الإنسان ذلك الشعور القوي العميق بوجود الله، الذي نسميه (الفطرة)، أودع كذلك في عقله قانوناً مطرداً ثابتاً يهدي إليه ﷻ، وهو ما يُعرف بقانون (السببية) أو (العِلَّة).

ومعنى هذا القانون: أن العقل البشري - بدون تلقين ولا تعليم - يوقن أن لكل شيء في الوجود سبباً، وأن لكل معلول علة، ولكل فعل فاعلاً، ولكل أثرٍ مؤثراً، وأن شيئاً ما لا يصدر عن غير سبب.

حقيقة نلمسها في أنفسنا، ونشاهدها في أطفالنا، دون أن نُعلمهم إياها؛ ولهذا نرى الطفل كثير التساؤل عن سبب كل شيء من الجزئيات التي حوله، ومن الأطفال من يرهق والديه بكثرة الأسئلة عن الأسباب، وأسباب الأسباب حتى يقف عند سبب مقنع! كل ذلك؛ لأن العقل الفطري يؤمن بالسببية في حدوث الأشياء، ولا يؤمن بالوجود المعتمد لها، ولا بأنها تسير بالاحتمالات والصدفة والجزاف.

فإذا أدرك عقل الناشئ الكون كله وحدة واحدة، وجاوز مرحلة الوقوف عند الجزئيات، سأل السؤال الأكبر الذي ما خُلق إلا ليسأله ويُجيب عليه، وهو: من خلق هذا الكون؟.

إن قانون (السببية) المركوز في فطرته، هو الذي جعله يسأل هذا السؤال، ولا يعتقد أن هذا الكون وُجد وحده، بلا مُوجد، فمن هو المُوجد الخالق؟ إنه بالطبع ليس أنا، ولا أنت، ولا غيرنا من البشر؛ لأننا أنفسنا مخلوقون عاجزون محتاجون إلى خالق غير مخلوق، قادر غير عاجز، وذلك هو (الله).

لا يمكن أن يُقال: إن الموجودات كلها ناقصة، وإن الكمال يتحقق في الكون كله؛ لأن هذا كالقول بأن مجموع النقص كمال، ومجموع المتناهيات شيء ليس له انتهاء، ومجموع القصور قدرة لا يعترها القصور! فإذا كانت الموجودات غير واجبة لذاتها؛ فلا بد لها من سبب يوجبها، ولا يتوقف وجوده على وجود سبب سواه^(١).

وهذه النتيجة هي التي عبّر عنها الأعرابي قديمًا، ببساطة وسذاجة - كما ذكرنا من قبل - حين سألوه عن (الله): كيف عرفه؟ فقال: البعرة تدل

(١) الله، للأستاذ العقاد، ص ١٤.

على البعير، وأثر السير يدل على المسير، فكيف بسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ أفلا يدل ذلك على العليّ الكبير؟!.

ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار العرب الذين نزل بلسانهم إلى ما حولهم من مخلوقات، ليهتدوا بها إلى الإيمان بخالقها الواحد، فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ • وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ • وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ • وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ •﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

إن الإيمان بالإله ضرورة عقلية، لتفسير خلق هذا العالم، وبدون الإيمان يظل هذا السؤال الذي أثاره القرآن حائراً قلقاً بغير جواب: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ • أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ •﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]. وهم - بداهة - لم يُخلَقوا من غير شيء، وهم أيضاً لم يَخْلُقوا أنفسهم، ولم يدع أحد منهم، ولا مَن قبلهم أو بعدهم، أنه خالق السماوات والأرض؛ فمن الخالق إذن؟.

ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد، لا يملك الإنسان إذا ترك نفسه إلا أن يُجيب به، ذلك هو ما أجاب به المشركون أنفسهم: - ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ •﴾ [العنكبوت: ٦١].

- ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ •﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وهو عين ما يُجيب به أقطاب العلم الحديث اليوم، يقول أحدهم: «تثبت العلوم بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أبدياً، ولا تقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية، فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ ملايين السنين.

واليوم لا بد لمن يؤمن بنتائج العلوم، أن يؤمن بفكرة الخلق أيضًا. وليس من المعقول أن يكون هناك خلق بدون خالق، هو الله^(١).

وثانيًا: إن العلم الحديث قد أغلق إلى الأبد باب القول بأن هذا الكون أو شيئًا فيه قد وُجد بالمصادفة، فإن العلم الرياضي - الذي هو منظّم حسابات العلم الحديث - قد بحث موضوع المصادفة على أساس رياضي، وبيّن بوضوح: أن احتمال وجود الكون أو شيء فيه بالمصادفة هو (الصفر الرياضي).

إن المصادفة وإن كانت تبدو لنا شاردة غير منتظمة، فهي تخضع لقوانين صارمة تقيدها تقييدًا وثيقًا.

ويضرب لذلك الأستاذ (أ. ك. موريسون) مثلاً يقول: «خذ عشرة (بنسات)، كلّاً منها على حدة، وضع عليها أرقامها مسلسلة من (١) إلى (١٠)، ثم ضعها في جيبك، وهزها هزاً شديداً، ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها، من (١) إلى (١٠).

إن فرصة سحب البنس رقم (١) هي بنسبته إلى (١٠)، وفرصة سحب رقم (١) ورقم (٢) متتابعين هي بنسبة (١ إلى ١٠٠)، وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام (١، ٢، ٣) متتالية، هي بنسبة (١ إلى ١٠٠٠)، وفرصة سحب (١، ٢، ٣، ٤) متتالية هي بنسبة (١ إلى ١٠٠٠٠) .. وهكذا، حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول، من (١ إلى ١٠)، هي بنسبة (١ إلى ١٠ بلايين).

(١) مقال للعالم الأمريكي إدوارد لوثر كسبل، من كتاب: الله يتجلى في عصر العلم، ص ٣٣، تأليف: نخبة من العلماء الأمريكيين، ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، الناشر: دار القلم، بيروت - لبنان.

والغرض من هذا المثل البسيط هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة.

وإذا كانت الأعداد تتكاثر بهذه الصورة ضد المصادفة في أول مرة، فإنها تتكاثر وتتكاثر بما لا يُتصوّر إذا أردنا تكرار التجربة مرات أخرى^(١). يقول العالم المذكور: «لنفرض أن معك كيسًا يحوي مئة قطعة رخام، تسع وتسعون منها سوداء، وواحدة بيضاء. الآن هزّ الكيس، وخذ منه واحدة: إن فرصة سحب القطعة البيضاء هي بنسبة واحد إلى مئة، والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس، وابدأ من جديد: إن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليين، هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف (١٠٠×١٠٠).

والآن جرب مرة ثالثة: إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متتالية هي بنسبة مئة مرة مضروبة في عشرة آلاف (١٠٠٠٠×١٠٠) أي بنسبة واحد في المليون، ثم جرب مرة أخرى أو مرتين، تصبح الأرقام فلكية^(٢). وهذا المثل يدلنا بوضوح على أن ما يحدث بالمصادفة يصعب جدًا أن يتكرر، ويستحيل أن يستمر وقوعه، فكل ما نراه من ظواهر طبيعية تتجدد باستمرار، وتكرر بانتظام، وتمضي بلا خلل ولا اضطراب، يستحيل أن يقع هكذا بالمصادفة العمياء، وحين تكون الحقائق هكذا ناطقة، وحين نعترف بخواص عقولنا يكون من الخبل والسفه أن نرد الحياة والنظام والتقدير في هذا العالم إلى صدفة موهومة، ونغفل كل منطق وكل برهان. وبهذا نعلم أن صندوق الحروف - الذي ضربه بعض الماديين مثلاً لعمل الصدفة - هو وهم من الأوهام، وهو - بمقتضى المنطق الرياضي

(١) الفصل الأول (عالمنا الفذ) من كتاب: العلم يدعو إلى الإيمان، ص ٤٩.

(٢) الفصل السادس عشر (المصادفة)، ص ١٩١.

المذكور - يستحيل أن يحدث، ولو فُرض حدوثه، فيستحيل أن يتكرر، وأن يثبت، فضلاً عما في هذا المثل نفسه من خلل ينقض دعوى قائله، ويستلزم فرضاً غير فروض المصادفات، كما يقول الأستاذ العقاد.

أ - «فقد فاتهم أنهم قدّموا الفرض بوجود الحروف المناسبة التي ترتبط بعلاقة اللفظ، وينشأ منها الكلام المفهوم؛ فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماسكة ترتبط بينها بعلاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التي بين الحروف الأبجدية؟ ومن أين للمادة هذا التنوع في الأجزاء؟ ومن أين لهذا التنوع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم؟»

ب - وفاتهم كذلك: أنهم قدّموا الفرض بوجود القوة التي تتولى التنسيق والتنفيذ، وليس من اللازم عقلاً أن توجد هذه القوة بين الحروف.

ج - وفاتهم مع هذا وذاك أنهم فرضوا في هذه القوة الجامعة: أنها تُعيد تنسيق الحروف على كل احتمال، كأنها تعرف بداءة كيف تكون جميع الاحتمالات.

د - وفاتهم - عدا ما تقدم - أن الوصول إلى تنضيدة مفهومة منظومة لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها^(١).

• فَكَّرْ فِي نَهَايَتِكَ إِنْ كُنْتَ ذَا دِينٍ :

أمر الدين بالنسبة للإنسان ليس أمراً هيئاً، بحيث يمكن السهو عنه، أو الانشغال بغيره، أو إرجاؤه إلى فرصة أخرى من العمر تأتي أو لا تأتي، كأن ينتظر الشيخوخة تحلُّ به؛ ذلك أن الإنسان لا يعرف متى ينتهي أجله في هذه الحياة، فإذا قلت: أوْجَل الأمر من الشباب إلى المشيب؛ فمن يدريك أن

(١) الله، للأستاذ العقاد، ص ٢١٦.

الموت لن يختطفك، وأنت في ريعان الشباب؟ وكم من شاب افترسه الموت، من بين أبويه وإخوته، وهو في أوج شبابه وقوته، فكان لموته جراح ونواح!.
المهم أن ينظر الإنسان في أمر الدين، قبل أن يفاجئه الموت بما لا يتوقعه، وهو في غفلة من أمره، وقد تزداد الغفلة وتتراكم على الإنسان، باتباع الشهوات، واقتناص الملذات، وانتهاز الفرص لاكتساب المصالح المادية والمطالب الشهوانية، وفي ذلك يتنافس الناس ويتهارشون، بل يتعادون ويتقاتلون؛ لأنهم شغلوا عن القضية الكبرى لكل إنسان، بقضايا صغيرة، بل صغرى.

وهذا ما ذكره القرآن حين بيّن للناس ما زين لهم من حب الشهوات، التي تهز كيانهم، وتزلزل وجدانهم، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

لا بد لكل إنسان أن يكون له دين، وقد ناقشنا الملاحدة الذين ينكرون أن للكون إلهاً، وأن مع كل جسد إنساني روحاً، وأن مع الدنيا آخرة، وأن مع الحياة موتاً، ومع الموت بعثاً، ومع البعث حساباً وجنة وناراً.. لكل فئة منهم نصيبه فيما يستحقه من ثواب الله تعالى وعقابه، ﴿فَمَنْ زُحْخِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ولا بد لهذا الملحد من دين يرتضيه العقل الحر المتفتح المهتم بالبحث والنظر والتفكير، ولا يجوز لنا أن نقبل إخراج الإنسان العاقل المفكر من خرافة (الإلحاد)، لنضعه في خرافة (الوثنية).

لقد ضلّت البشرية في تاريخها ف وقعت في أحابيل أناس من الكهنة والسحرة وتجار الدين، فاخترعوا للناس آلهة زينوها لهم، وأحاطوها بتعاويز وتمائيل وشعارات، زوّقوها وموّهوها، وربطوها بالآلهة، وبخدّام الآلهة من النُّسّاك والرُّهبان، الذين يلبسون الملابس الخاصة والمزخرفة، والمعطرّة والمبهرجة، ما يجعل لها ريحًا رائحة، وصورة باهرة، وأعينًا إليها ناظرة.

هؤلاء الناس من كهنة الأديان، وعُبّاد الأوثان، وأصحاب الشيطان، الذين يتقدمون إلى الناس اليوم في بلاد الدنيا من القارات الست في آسية وإفريقية، وفي أوربة وأمريكا الشمالية والجنوبية، وفي قارة أستراليا، يدعون الناس في القرن الحادي والعشرين، إلى أن يعبدوا الله بدين الوثنية!.

أمعقول أن يدين الإنسان بعدما سار في الهواء كالطير، وسار في البحر كالحيوت، وسار في الجو كأنه شهاب ثاقب: أن يدين بعبادة إله من نحاس، أو من ذهب، أو من البقر والعجول، أو من الشياطين، أو من غير ذلك مما يتخيله الناس في عقولهم أو في أوهامهم إلهًا، يُسأل فلا يجيب، ويُشكى إليه، فيعجز عن النظر في شكوى من يشكو إليه؟!.

هذه الوثنيات الكبرى التي اتخذ الناس لها آلهة شتى يعبدونها من دون الله في قارة آسية، من الهندوسية التي يتبعها الناس في الهند، ومن البوذية التي يتبعها الناس في الصين وكوريا وتايلاند وسريلانكا.. وغيرها، وكذلك الوثنية اليابانية، والوثنيات في إفريقيا تجتمع حول عبادة آلهة اختاروها حسب أهوائهم أو أوهامهم، أو أوهام شيوخهم وزعمائهم، وغيرها من الوثنيات في العالم.

نحن ندعو الشعوب والأمم الوثنية - وهي في الحقيقة أكثر العالم - أن تنظر في الأمر نظرة تليق بالإنسان بعدما صنع العجائب، واخترع الغرائب،

وقرب البعيد، وأنطق الحديد، وقلب الموازين، وصعد إلى القمر، وسافر إلى ما هو أبعد منه، وأبدع الثورات العلمية الهائلة: الفضائية والنووية والبيولوجية والتكنولوجية والمعلوماتية.. وغيرها، فلا ينبغي أن يعبد مخلوقات مسخرة له ولخدمته ومنفعته.

• أمام الوثنية طريقان للتعامل مع الدين:

وهذه الوثنيات التي في العالم هنا وهناك أمامها طريقان في التعامل مع الدين: طريق يرفض الأديان جميعها، ويقول: ليس هناك دين، ولا كهنوت، ولا إله، ولا روح، ولا آخرة، ولا ملائكة، ولا شيء مما صدّع به أهل الإيمان رؤوس الناس، وهو ما قاله الملاحدة، وناقشناهم فيه، وأبطلنا كل ما يدّعون، ويغالون فيه، ويضخمون منه، وهو لا طائل تحته.

كمثل الطبل يُسمع من بعيدٍ وباطنه من الخيرات خالٍ

والطريق الثاني: هو الرجوع إلى الأديان، التي يقول أهلها: إنها أديان سماوية، أو كتابية، جاء بها أنبياء من أهل الأرض، بُعثوا من السماء، وأنزل عليهم كتب منسوبة إلى السماء، الله هو منزلها وقائلها، وهي أديان ثلاثة بدأت باليهودية، وثنت بالمسيحية، وثلث بالإسلام، وهو خاتمها، وخاتم كل الديانات السماوية.

• الأديان الكتابية:

وإذا كنا نطالب أهل الأديان الوثنية التي شرّقت وغرّبت في حياة الناس وفي أفكارهم، ووجّهت عقولهم توجيهات لا يكاد يصدّقها عقل، أو يقبلها امرؤ ناضج في العالم السليم من أَوْضار الوثنية وخُرْعبلاتها، التي تعبد الإله من العجوة وتسجد له، وتتضرع إليه، ثم إذا جاعت أكلته.

على كل حال، فإن الأديان السماوية، أو الأديان الكتابية، التي جاء مع كل نبي منها كتاب من السماء، أوحاه الله إليه، كما بعث موسى إلى بني إسرائيل وأنزل عليه كتابه (التوراة)، وهو يشمل خمسة أسفار أساسية، وتليه أسفار أخرى ليست أصلية، وإنما هي تابعة له، وتابعة لأنبياء آخرين ليسوا في منزلة موسى ﷺ الذي كان أكبر نبي من بني إسحاق ﷺ.

وكما بُعث المسيح عيسى (يسوع) ابن مريم ﷺ، وأنزل عليه كتابه (الإنجيل)، وإن كان هذا الكتاب المنزل، لم نره بأعيننا، وإنما قرأنا ترجمة ما بقي منه، مقرونة مع قصة المسيح ﷺ، ووعظه لقومه، ودعوته لهم إلى التوحيد.

ثم بعده بسنة قرون أو تقل قليلاً، بعث الله نبيه محمدًا، وأنزل عليه القرآن الكريم، وأعلن أنه خاتم النبيين، وبهذا تميّز عن النبيين من قبله، بأمرين كبيرين لمن تأملهما:

الأول: أن دعوته دعوة عالمية، فليست محلية أو إقليمية أو وطنية، فهي في كل البلاد، ولكل العباد. وهذا ما أعلنه محمد لكل الناس أنه مبعوث لهم جميعًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والثاني: أن هذه الدعوة هي الخاتمة، فليس هناك نبي بعده يأتي برسالة أخرى تكمل الرسالة، أو تستدرك عليها، بل هي الرسالة الخاتمة، كما قال محمد ﷺ: «أنا الخاتم فلا نبي بعدي»^(١).

وقال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة!» قال: «فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦)، عن أبي هريرة.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

على كل هذه الأديان أن تنظر في أمرها بمنتهى العقل الذي يفكر بكل قوة، وبمنتهى الحكمة التي تنظر في الأمر بكياسة لا ثقة، وأن تعالج الأمر بكل ما ينبغي له من اللباقة والكياسة التي تقاس بها الأمور الكبيرة، ولا تنظر بعقل السفهاء من ضعف العقول، وشرار الخلق، الذين عناهم الشاعر بقوله:

لكلِّ داءٍ دواءٌ يُسْتَطَبُّ به إلَّا الحماقَة أعيثَ مَنْ يُداويها

وستجد أنه لم يعد من المناسب للإنسان الذي كرّمه الله أحسن تكريم، وخلقه في أحسن تقويم، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وأسبغ عليه نعمه كلها ظاهرة وباطنة، لم يعد يليق به في عصرنا، بعد أن مكّنه الله من ناصية العلوم والرياضيات في البر والبحر والجو، وصنع منها القنابل النووية، ووصل بها إلى كواكب عليا، وصنع الإنسان الآلي، وأخضع كثيراً من الأشياء الضخمة لقدرات الإنسان ذي العقل، أقول: لم يعد لهذا الإنسان: أن يسجد لوثن هو الذي يشكله ويصنّعه، ويصغّره ويكبّره، ويصنع من الواحد آفاقاً، ثم بعد أن عمله بيده يعبد ويخر له ساجداً!!.

كما قال الشاعر:

كصانع صنمًا يومًا على يده وبعدَ ذلك يرجوهُ ويخشاه^(١)

(١) البيت لمحمد توفيق بن علي بن محمد البكري الصديقي (المتوفى: ١٣٥١هـ)، انظر: اللؤلؤ في الأدب، ص ١١٢، وضع وترتيب: عثمان شاكر، ط ١، ١٩٢٧م.

إننا ننادي الملايين ومئات الملايين، بل المليارات من البشر، أن تراجع نفسها مرة واحدة مراجعةً البصير، الذي وجد رُشده بعد أن فقدته، ووجد هدايته بعد أن ضلَّ عنها، هو وقومه وأقوام كثيرة. آن لهؤلاء أن يعرفوا الحقيقة الواضحة، التي لا تخفى على عين بصيرة، آن لهم أن يتركوا الوثنية الحمقاء والعوجاء، ويعودوا إلى الفطرة السليمة، ليعبدوا الله الإله الواحد، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه، وإليه ترجع كل الأمور، وبأمره تسير كل الخلائق.

• أي دين من الأديان الكتابية نرتضيه؟

الأديان السماوية المعروضة على الخلق ثلاثة:

أولها: الديانة اليهودية:

وأول هذه الديانات الثلاث: الديانة اليهودية، التي بُعثَ بها موسى، من حوالي (٤٠٠٠) سنة، بعث بها إلى فرعون وقومه، ثم إلى بني إسرائيل، وأنزل الله عليه التوراة، فيها موعظة وتفصيل لكل شيء، فيها نور وهدى للناس، فيها تفاصيل تشريعية كتبها الله على بني إسرائيل، وفيها أحكام تتعلق بالعبادات، وأحكام تتعلق بالنكاح والطلاق، وقضايا الأسرة، وأحكام تتعلق بالجنايات، وأحكام في السياسة العامة.

وكان بنو إسرائيل هم المكلفين بحفظ التوراة، ولم يتكفل الله بحفظها، ولكنهم للأسف لم يقوموا بما يلزم لذلك من إعداد الحُفَظ لهذا الكتاب، ولذلك حينما نزلت بهم الحروب، وحرقت معابدهم ومنازلهم وكتبهم ومصادرهم، ضاعت التوراة، وبحثوا عمَّن يحفظ منها أشياء، فوجدوا من حفظ شيئاً، وغابت عنه أشياء، كما هو شأن البشر،

فسجّلوا منها ما سجلوا، وكتبوا ما نقصهم مما بقي في حوافظهم، فضاع الأصل الأصيل، وحُرّف الكلم عن مواضعه، حرّفوه مادّيًا بالزيادة والنقصان، وحرّفوه معنويًا بالتفسير غير المشروع لبعض الألفاظ من عند أنفسهم.

وكان في تشريع التوراة ما لا يقبله العقل، بل لا يقبله الدين الصحيح.

ليس من المعقول أن يكلف الله البشرية كلها أن تتبع رسالة صار لها أربعة آلاف سنة، نزلت لبيئة معينة، متمردة على ربها، وعلى كتابها، فعاقبها الله ببعض الشرائع التي لا يجوز أن تستمر أبد الدهر.

دين القبيلة الكبيرة لا يصلح أن يكون دين البشرية، بعد أن اتسعت وأوشكت أن تكمل المليار الثامن.

ثانيها: الديانة المسيحية:

وكذلك أرسل الله للناس المسيح عيسى ابن مريم، ولكنهم كفروا به وكذبوه، وكادوا له مع خصومه، من الوثنيين والظالمين.

وقد أتى المسيح عيسى ابن مريم بالديانة السماوية الثانية، ومعها الكتاب السماوي الثاني، وهو: الإنجيل، وكان المفروض أن يؤمن اليهود بعيسى، كما آمنوا بموسى عليه السلام، ولكنهم تنكروا له، وكانوا من أشد أعدائه، والكائدين له، والصادين عنه.

وكانوا من الذين شاركوا في محاولة صلب عيسى وقتله، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعِ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

عيسى ابن مريم أعلن أن رسالته موصولة برسالة موسى عليه السلام، «ما جئت لأنقض الناموس، ما جئت لأنقض، بل لأتمم»^(١).

ولذلك اعتبرت التوراة من (الكتاب المقدس) عند المسيحيين، فهم يؤمنون بالتوراة وتوابعها، من نبوة إشعيا، ومزامير داود، وما كان عند سليمان، وما جاء به الأنبياء الآخرون قبل.

ولم يدّع عيسى أنه بعث برسالة عامة، بل هو مبعوث إلى بني إسرائيل، كما قال: «إنما بُعِثْتُ إلى خراف بني إسرائيل الضالة»^(٢).

وقد جاء المسيح منذ أكثر من ألفي سنة، برسالة أساسها رسالة موسى، أو شريعة موسى، أو الناموس الذي جاء ليتّممه، لا لينقضه.

وقد أعلم قومه أنه جاء ليبشرهم بمن يكون بعده، بمن سماه: (الفارقليط)، وهو المُسمّى من الحمد، اسم مشتق من الحمد، أي: محمد أو أحمد، أو حامد، أو محمود، ونحو ذلك، فكلها مشتقة من الحمد.

ثالثها: الديانة الإسلامية:

وقد مضت القرون بعد القرون، وقامت إمبراطوريات وتطوّرت، ثم ضعفت، ثم انمحت، وقام غيرها وغيرها، وتغيّر العالم من حولنا في مبانيه ومعانيه، وفي ضميره وفي روحه، أفلا يستحق الناس ما بشر به المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، هذا الذي يأتي من بعده، يعلم الناس الهدى ودين الحق، ويظهر دينه على الدين كله.

(١) متى (١٧/٥).

(٢) متى (٢٤/١٥).

• الحقيقة أن موسى وعيسى عليهما السلام كانا رسولين عظيمين من رسل الأديان السماوية، أنزل الله عليهما كتابين، وبعثهما رسولين، ولكنهما لم يُبعثا بالدين الخاتم، الذي يُعلن أنه هو الذي ختم الله به النبيين، وليس بعد كتابه كتاب، ولا بعد رسوله رسول، ولا بعد شريعته شريعة.

وهذا لم يقله نبي بعثه الله برسالته، إلا محمد ﷺ، فقد أعلن من أول ما أرسل: أنه مرسل إلى العالمين:

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

- ﴿قُلْ يَتَّيِّهُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

كما أعلن في كتابه الذي نزله الله عليه أن الله ختم به النبيين، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال ﷺ عن نفسه: «أنا خاتم النبيين، فلا نبي بعدي»^(١).

وأجمع المسلمون من أول بعثته إلى يوم الناس هذا إلى أن تقوم الساعة أنه خاتم النبيين.

• وقد جمع الله في شريعته: الأصول اللازمة للحياة الإنسانية المتكاملة والمتوازنة، في العقائد والعبادات، والأخلاق والآداب والمعاملات، في حياة الفرد والأسرة والمجتمع، والدولة والأمة، والعلاقات الدولية، في الحياة الروحية والفكرية والاجتماعية، والسياسية والدولية، في السلم والحرب، في حالات الصلح وحالات النزاع.

(١) سبق تخريجه.

رسالة موسى في حينها كانت أصلح شيء لبني إسرائيل، ثم لما تطاولت القرون، احتاج الناس إلى رسول آخر، برسالة متممة، يُحل فيها بعض ما حرم الله عليهم، ويخفف بعض التعسيرات والتطبيقات والشكليات التي أدخلوها على الدين، فأرهبوا الناس من أمرهم عسراً، وشددوا عليهم ما يسر الله، وكانت رسالة المسيح، التي رفضها أولئك الإسرائيليون، الذين ذمهم المسيح بأقصى الكلمات.

وجاء المسيح بهذه التخفيفات، ولم يجرى بدين عام يصلح للخلق كلهم إلى أن تقوم الساعة وينتقض هذا الكون، فكانت رسالته إلى مئات من السنين، ثم يُفسح الطريق إلى الرسالة العامة الخالدة، التي بعث الله بها رسوله محمداً، وهي الرسالة التي وصفها أحد أتباعه، وهو حسن البنا بأنها: الرسالة التي امتدت طويلاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتى شملت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة.

وقد مضى على المسيح أكثر من ألفي سنة، ولم تظهر نبوة يمكن أن يسمعها الناس، ويجدوا فيها ما يشبع نهمهم، ويسد فراغهم، ويملاً حياتهم، ويجيب عن أسئلتهم، ويضع كل شيء في موضعه، إلا نبوة محمد ﷺ.

• العقيدة الإسلامية المؤسسة على التوحيد الخالص للمعبود، الذي لا شريك له، ولا ند له، ولا ضد له، ولا مثل له: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿[الشورى: ١١]، ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿[الإخلاص: ٣ - ٤].

• وهي عقيدة تشمل الإلهيات، المتعلقة بذات الله تبارك وتعالى، المتصفة بكل كمال، المنزهة عن كل نقص: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا

بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿[البقرة: ٢٥٥].

- وتشمل العقيدة كذلك صفاته تعالى الإيجابية: كالقدرة والإرادة، والعلم والحياة، والسمع والبصر والكلام. وكلها أثبتتها الأدلة العقلية للإنسان، والأدلة النقلية للوحي الإلهي، مما يأتي في القرآن الكريم، وما يؤيده من أحاديث الرسول.

- والصفات السلبية: التي تنفي عن الله ما لا يليق بكماله في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، مثل أن يكون له ولد أو شريك، أو نحو ذلك مما قاله الوثنيون، ووقع في أمثاله بعض أهل الكتاب، كما نسبت التوراة إلى الله ما لا يجوز أن ينسب إليه، مما لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى.

- وقد وصف الله تعالى نفسه بصفات لا تليق بأحد غيره؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

وفسر النبي ﷺ ذلك فقال: «اللهم أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء»^(١).

- كما وصف الله تعالى ذاته تعالى بالوحدانية الكاملة والمطلقة، فليس معه إله، ولا له شريك، ولا ند، ولا صاحبة، ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

(١) رواه مسلم في الذكر (٢٧١٣)، وأحمد (٥٩٦٠)، وأبو داود في الأدب (٥٠٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٠)، عن أبي هريرة.

- كما تشمل العقيدة: الدار الآخرة، وفيها يحيا الإنسان الحياة الحقيقية، التي وعد بها رسل الله الذين بعثهم إلى خلقه، ليعرفوا أقوامهم بالجنة، دار النعيم للمؤمنين بهم، السائرين في طريقهم، وبالنار دار العذاب الأبدي، لمن كذبهم وعاداهم، وكفر بهم وبما جاؤوا به من عند الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

دخول الجنة أو النار، لا يكون إلا بعد حساب ومساءلة من الله تعالى، قد يكون عسيرًا على بعض الناس، ويسيرًا على آخرين، حسب أعمالهم، بعد أن يُعطى كل كتابه يمينه أو بشماله، ويقرأ كل واحد كتابه، وهو أشبه بما عرفناه في عصرنا بشريط سينمائي، فيه كل ما قال الإنسان، وما فعله بعد بلوغه، مما يثاب به، أو يعاقب عليه.

وتوزن أعمال كل إنسان، وتوزن حسناته على ما عمل من خير لله تعالى ولخلقه، ومن سيئات.

وكل شيء له ميزان يناسبه، فنحن نعلم أن أكياس القطن لها ميزان يناسبها وهو القَبَّان، بينما الغلال والحبوب وما يُذهب به إلى ماكينة الطحين له ميزان يناسبه.

والفواكه والخضروات لها ميزان يناسبها.

وميزان الحرارة مصنوع بحيث يُظهر تفاوتها.

وميزان الضغط الجوي، وغيرها من الموازين معروفة.

فلا إشكال في أن هناك موازين تزن الأعمال الحسنة والسيئة عند الله، وتبين مقاديرها عند الله، وقد قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والناس متفاوتون جد متفاوتين في هذا اليوم:
فمنهم من يدخل الجنة بغير حساب.

ومنهم من يحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله مسرورًا.
ومنهم من يحاسب حسابًا عسيرًا، فيدعو ثبورًا، ويصلى سعيًا.
ومنهم من ينجح من أول الأمر، ومنهم من لا يستحق دخول الجنة من أول الأمر، ولكن يشفع له شفيع مستجاب عند الله، فيخفف الله عنه.
ومنهم من ليس له شفيع يطاع، فيذهب إلى ما يستحقه من نار جهنم.
• وهناك في العقيدة: النبوات، فقد بعث الله أنبياءه ورسله إلى الناس في مختلف ديارهم، كما قال القرآن: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].
وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

آدم ﷺ، هو أول الأنبياء، وأبو البشر.

وأول من بعثه الله إلى قوم مكذبين للرسول هو نوح، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

واستمر هؤلاء الرسل إلى أن ختموا بآخرهم محمد، الذي أنزل عليه القرآن، الذي أعجز البشر أن يأتوا بمثله، وأوجب الإسلام على كل مسلم أن يؤمن بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل.

• يكمل هذا النوع: الإيمان بالملائكة، وهم من عالم الغيب، الذي تؤمن به، وإن لم نره، وهم مخلوقون من نور، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتزوجون ولا يتوالدون، وهم يعملون فيما يكلفهم الله به، في معونة الرسل، وفي إجراء الرزق على الخلق، وفي نصرة المؤمنين وإذلال الكافرين، كما أنزلهم الله تعالى ليقاتلوا مع المسلمين في غزوة بدر، وفي غزوة الأحزاب، وفي غزوة حنين.

• وبعد العقيدة شرع الإسلام العبادة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد شرع الإسلام للمسلمين عبادات شتى، تصلهم بالله تعالى ربهم الأعلى، من صلوات خمس في كل يوم.

ومن صيام عن الطعام والشراب ومباشرة النساء في نهار رمضان من كل عام. ومن بذل مال مما يفيض عن حاجة المسلم وحاجة عياله من ماله المملوك، يعطيه صدقة يطهره الله ويزكيه بها، ويكون بركة له ولماله.

ومن حج مرة في العمر كله، لمن استطاع إليه سبيلاً. يذهب المسلم في رحلة من بلده إلى بيت الله الحرام، ليطوف بالبيت الحرام (الكعبة المشرفة)، ويسعى بين الصفا والمروة، ويقف بأرض عرفات، ويذكر الله عند المشعر الحرام بمزدلفة، ويبعث بمنى ليرمي الجمرات لمدة يومين أو ثلاثة، وهذه هي فرائض العبادات التي أمر بها الإسلام، وتعتبر من أركان هذا الدين.

وهناك عبادات أخرى من: الذكر والدعاء، والاستغفار وتلاوة القرآن، والصلاة على النبي الكريم.

• ثم تأتي مرحلة التشريع الإسلامي للفرد في مطعمه ومشربه، وملبسه ومسكنه، ونومه ويقظته، وما يحل له، وما يحرم عليه.

- ثم هناك التشريع للأسرة في الزواج واستمراره والحفاظ عليه، وبيان ما لكل من الزوجين من الحقوق التي له على صاحبه، وحقوق العشرة والنفقة، وعند الخلاف، وعند تعذر الوفاق، واتباع الطلاق بالمعروف مع رجاء بقاء المودة بين الطرفين، ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وهناك أحكام الطلاق والعدة والمتعة والنفقات. كلها معروفة ومفصلة.

- وهناك التشريعات المالية: البيع والشراء، والتجارة، والربا، والتوكيلات وما يدخلها من شروط، وما يخرج عنها من تجاوزات، وما يتضمنها من عقود، وما يباح فيها وما يحرم.. فصله الفقه الإسلامي، ونزلت فيه أطول آية من كتاب الله تعالى؛ آية المداينة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُفُّوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكُفُّوهُ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

- وهناك فقه الأوقاف، وما يتصل بها، مما اتفق عليه الفقهاء وما اختلفوا فيه، وكان للمسلمين أوقافهم التي بهروا بها العالم، فلم يتركوا عملاً فيه خير لإنسان أو لطفل أو امرأة أو شيخ كبير، أو لطير أو لبهيمة أو حيوان، أو غير ذلك، إلا كان له ما خصص له مما أوقفه المسلمون من أموالهم.

- وهناك التشريع الجنائي الذي وضع فيه القاضي الفقيه عبد القادر عودة رَحِمَهُ اللهُ كتابه (التشريع الجنائي في الإسلام) من جزأين في أحكامه البليغة، التي بلغت في العدل مبلغاً لا يصل إليه مخلوق، إلا إذا كان متصلاً بفقه الشريعة النازلة من عند الله.

- وهناك فقه السياسة الشرعية، الذي بيّن ما بين الناس ورعاتهم، فلا بد للشريعة أن تعالج هذا الأمر، ولا تتركه فوضى، أو نهباً لمن يريدون أن يأكلوا حقوق الناس بالباطل.

وهو ما وضع فيه كبار الفقهاء أفضل ما عندهم، مما تصان به الحقوق والحريات والمصالح، ولا يتلاعب بها الذين يتخذون الدين لهواً، واللهو ديناً، والذين يقدّمون مصالحهم على حقوق شعوبهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وقد فصل ابن تيمية ذلك في كتابه الشهير (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، وقبله فضّله إمام الحرمين في كتابه (الغياثي) أو (غياث الأمم في التياث الظلم)، وقبله معاصره الماوردي في كتابه (الأحكام السلطانية والولايات الدينية).

- كما وضع الفقهاء المسلمون كتب الفقه المالي الذي ابتدأه القاضي الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام الأكبر أبي حنيفة النعمان في كتابه الذي سماه (الخراج)، وأكمل ذلك الإمام الحجة أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه القيم (الأموال)، وهناك كتاب آخر بهذا الاسم وفي الموضوع نفسه لابن زنجويه.

* * *



الإنسان مخلوق مختار

هنا ينتهي بنا قانون العقل، الذي به صرنا إنسًا نفترق عن الأنعام التي نأكلها، والوحوش التي تأكلها، إلى أن نقول: هذه الأشياء لا يمكن إلا أن تكون مخلوقة، ولا يمكن أن تُخلق من غير شيء، بل لا بد لها من صانع صنعها، وسواها وزينها، وأحكمها وأبدعها، وأمضاها على نظام عجيب، حتى استوت وانتظمت، على أروع نظام، وأبدع إحكام، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]. إنه الخلاق العليم ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

• دلالة الكون على الله:

ومما يدخل في مدار العقل دلالة الكون على وجود الخالق الأعظم. فلا شك أنها من أعظم الدلالات، فالله تعالى قد خلق هذا العالم الواسع بسماواته وأرضه، ما نبصر منه وما لا نبصر، ليدل خلقه العقلاء عليه، ويرشدهم إليه، كما قال تعالى: ﴿سَرُّيَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقد بيَّنا طرفًا من ذلك في الفصل السابق.

• الإنسان مخلوق غير مستقل:

الإنسان مخلوق، غير مستقل في حياته، فهو جزء من كل، وفرد من جماعة، وغصن من شجرة.

وإذا كان الإنسان غير مستقل في معيشتة، وفي صحته ومرضه، وفي حياته وموته، فما هو إذن؟ لا بد أنه مخلوق. ما معنى: أنه مخلوق؟ معناه: أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، لم يكن له وجود فوجد، وأصبح إنساناً حياً وُلِدَ ونَمَا، هذا هو الذي يسمّيه الناس: مخلوقاً. وهذه بدهية واضحة للعيان، قاطعة لكل جدال.

البشرية التي توشك أن تكمل المليارية الثامنة، من مختلف الأجناس والألوان والطبقات، وفي مختلف القارات التي يعرفها الناس، كلها تمثل هذا الإنسان، الذي أكد بفطرته وب عقله، وبإنجازاته الهائلة: أنه مخلوق، وكل ما له من إنجازات كبيرة في العالم، الذي يحيا فيه هو وإخوانه، وما حوله من كائنات، يدل على أنه مخلوق؛ لأنه هو نفسه قد خلق هذه المخلوقات الكثيرة عن يمينه وعن شماله، ودلّل لنا بها أنها مخلوقة، كذلك هو مُنْجَز لصانع أكبر صنعه، وصنع الكائنات الكبيرة من حوله، كالشمس والقمر، والسماء والأرض، وما فيها من نجوم وكواكب.

الإنسان - كل إنسان - مخلوق، أنشأه منشئ، وصنعه صانع، مَنْ صَنَعَنِي هُوَ مَنْ صَنَعَكَ، وهو مَنْ صَنَعَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَأَخَاكَ وَأَخْتَكَ، وَعَمَّكَ وَعَمَّتَكَ، وَخَالَكَ وَخَالَتَكَ، وَقَرِيبَكَ وَجَارَكَ، وَصَهْرَكَ وَصَاحِبَكَ.. كل هؤلاء، وأولادهم وذرياتهم، ومن حولهم، ومن يصادقهم، ومن يعاديهم، كلهم مخلوقون لهذا الخالق، يخلق الناس بقدرته، وَيُصَنِّفُهُمْ عَلَى مَا يَرِيدُ مِنْ أَلْوَانٍ وَصِفَاتٍ، مِنَ الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ وَالْمَلَوْنِ، مِنَ أَلْوَانِ الشُّعُورِ فِي الرَّأْسِ، وَأَلْوَانِ الْعْيُونِ، وَأَشْكَالِ الْأَنْوْفِ وَالشِّفَاهِ وَالْأَسْنَانِ، وَالْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ، وَغَيْرِهَا، يَخْتَلِفُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَلَكِنَّهُمْ جَمِيعًا مِنْ صَنَعِ خَالِقٍ وَاحِدٍ.

وبهذا تعرف جواب هذا السؤال الكبير الذي يسأله كل إنسان لنفسه: ماذا أنا؟ أنا شيء أو لا شيء، أنا أوجدت نفسي أم أوجدني موجد، وخلقني خالق؟ لا بد أنني مخلوق، فليس معقولاً أن أخلق نفسي، وقد كنت قبل وجودي معدوماً، وهل يخلق العدم الوجود؟ مستحيل هذا.

أنا مخلوق - إذن - ولا شك، ومن أدلة ذلك: أن هناك مثلي ألوفاً، بل ملايين، بل بلايين، لم يخلقوا أنفسهم، ولا أزعم أنني خلقتهم، وليس لي أدنى قدرة على ذلك، فمن الذي خلقهم؟ إنه الذي خلقني، ويخلق كل العالمين مثلي، بل يخلق كل العالمين من حولي، من الأنعام والحيوانات، والوحوش والزواحف والحشرات، وكل نبات في البر والبحر، وكل الأسماك والحيتان والكائنات المائية في البحار، ممّا يأكله الناس في أنحاء العالم، من هذا اللحم الطري اللذيذ.

بل من الذي خلق هذه النباتات من الأشجار الفارعة، والأشجار المتوسطة، والنباتات الصغيرة، والصغيرة جداً، ذوات الألوان الجميلة والرائحة، والتكوينات البديعة، من شتى الأصناف والأنواع والبدائع، التي تقدر بالملايين، ولا تكاد تُحصى.

وهذه الألوان والتصنيفات موجودة في كل ما هو في هذا الكون، بسماواته وأرضه، ما عرفنا منه وما لم نعرف، عرفنا قليلاً منه بعد أن اتسع العلم المادي، وتضخّمت أدواته وأجهزته، وهذا الكون شيء كبير نعجز عن الإحاطة به بكل طاقاتنا وإمكاناتنا، بحسبنا أن نعرف ما يمكن أن تهدينا إليه عقولنا.

الذي خلق هذا الكون الكبير علويّه وسُفليّه، سماواته وأرضه، هو الذي خلقنا، وخلق من قبلنا، وسيخلق من بعدنا، وهو الذي يشرف علينا جميعاً، ويدبّر أمرنا، ويحيينا إذا متنا، إنه (الله).

(الله) هذه الكلمة التي ننطقها بالعربية الفصحى والدارجة، ويعبر عنها كل قوم بلغتهم التي يتكلمون بها، فإذا سئل المرء: من خلقتك؟ ومن خلق هذه الأرض التي نمشي عليها، ونتاج منها زرعنا، ونربّي فيها أنعامنا ومواشينا، التي تحرث لنا أرضنا، وتسقينا لبنها، ونأكل لحمها، ونستفيد من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين؟.

من الذي خلق هذه البحار الزاخرة الواسعة المحيطة بنا، التي نرى أولها ولا نرى آخرها، والتي عرفنا بما درسناه في مدارسنا أنها تقارب ثلاثة أرباع الكرة الأرضية التي نعيش في أرجائها، وفيها من الأحياء المائية من الأسماك والحيتان والحيوانات ما لا يعلمه إلا الله، وفيها تجري السفن الصغيرة والمتوسطة والكبيرة التي تسير في البحر كالأعلام؟.

ومن الذي خلق السماوات من فوقنا، وقد اتّسع علمنا بها بعض الشيء، نعرف منها ما أذهلنا من ناحية الضخامة والسعة، والسرعة والقوة، ما عرّفنا به (علم الفلك) الذي قرّب إلينا هذا الكون البعيد، وبسط لنا معرفة هذا الكون الغريب، ووسع من فكرنا ما ضاق على غيرنا؟.

إن الذي خلق الأرض والسماوات العلا هو الله.

الله هو ربنا ورب السماوات والأرض، ورب كل شيء.

الله هو هذا الخالق، الذي يرى المخلوقات التي نراها، والتي لا نراها، فلسنا نرى كل ما خلقه الله. فقد علّمنا علماء الكون أننا لا نعلم منه أكثر من ثلاثة في المئة (٣٪)، والباقي نعجز عن معرفته، فليس عندنا الأدوات اللازمة، ولا القدرة اللائقة، ولا الضرورة الملحة للعلم بهذا الكون الواسع كله.

بعضنا - نحن البشر - ينازع في هذه الحقيقة الكبرى، فلا يرى أنه مخلوق، ويتلثم فيما وراء ذلك، فما معنى أنه ليس بمخلوق؟ هل وُجد

وحده؟ هل يخلق الشيء نفسه؟! هل هو غير مخلوق؟ إذاً هو خالق! وكيف يكون خالقاً ولا يملك أن يخلق عضواً صغيراً من أعضائه، أو حاسة من حواسه، أو عصباً من أعصابه، ولو نظر في العين التي يبصر بها ما حوله ومن حوله، وكيف هي مركبة، وعظمة تركيبها، وما جرى عليه أمرها.. إلى آخر ما هنالك، لوجد شيئاً تحار فيه العقول، ولا يجد الإنسان اللبيب، إلا أن يقول: سبحان ربي السميع البصير.

أنت أيها الإنسان، شأنك شأن الملائين، بل البلائين من البشر، الذين يولدون من حولك كل يوم، بل كل دقيقة، بل ربما كل ثانية، ويتكاثرون، ويتعلمون، ويزدادون علماً، ثم يسيحون في الأرض، ليسعوا فيها ويعمروها وينمئوها، ويحيوها ويجمّلوها، ثم يتركوها رغماً عنهم، ليذهبوا إلى عالم آخر.

الحقيقة الواضحة، التي لا يوجد أوضح، ولا أفصح منها: هي أننا كلنا مخلوقون، لخالق واحد، هو ربنا (الله)، الذي يطلب منا أن نتوجه إليه وحده بالعبادة، ولا نعبد إلا إياه، ولا نستعين إلا به، ولا نطلب حاجتنا إلا من عنده، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤]، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين بأحد إلا بك.

• الإنسان مخير أم مسير.. بين الخير والشر:

هنا يبرز لنا أن الإنسان من خلال النظر العميق، والتأمل البصير، والدراسة المتأنية: أنه مخلوق ولا شك في هذا، دلّت على ذلك كل الدلائل في نفسه، ومن حوله، كما دلّ على ذلك تاريخه غير المكتوب، وتاريخه المكتوب، وأظهر دلائله: أنه يموت.

فمن أعظم دلائل خلقه: أنه لم يكن موجودًا ثم وُجد، ثم عاش ما قُدِّر له من سنين - طالت أو قصرت - ثم مات. وقد قال الشاعر العربي:

وإذا كان آخر العمر موتًا فسواء قصيره والطويل!

ولهذا تعوّد الناس أن يرددوا قول أبي العتاهية:

لِدُوا لِلْمَوْتِ، وابنوا للخراب^(١)

ومن هنا قال المؤمنون للجاحدين، أو قال كل مؤمن لكل جاحد: عش ما شئت فإنك ميت، وأحب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ومسؤول عنه.

الإنسان لا ريب مخلوق في هذه الدنيا للخالق الأكبر، الذي خلق الكون العظيم من حوله: في السماوات وفي الأرض، هو الذي خلق هذا الكون بمن فيه وما فيه، وقد أقسم ﷻ بما نبصر وما لا نبصر، ليقنعنا بالحقائق العظمى التي تهدينا إليه، لننتفع بها، ونسعد بها في حياتنا الأولى والآخرة، قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿فَلَا أَقِمْ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٠].

الإنسان في نظر الإسلام: مخلوق فريد، من نسل آدم، الذي خلقه الله بيديه وسوّاه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه وزوجه الجنة، وهَيَّاهُ ليعيش وذريته في الأرض، ويعمرها ويجمّلها، ويحييها وينمّيها، كما قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وكما قال صالح لقومه ثمود: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

(١) صدر بيت له، وعجزه: فكلكم يصير إلى ذهاب. انظر: الحماسة البصرية (٢/٤٢٧)، ت: مختار الدين أحمد، ط: دار الكتب العلمية.

ولا عجب أن كَرَّمَ الله تعالى بني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وكما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ثمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ - ٦].

الإنسان في هذا الكون الواسع الكبير سيِّدٌ فيه على غيره، عبدٌ فيه لربه، فقد خلقه الله سبحانه وأسكنه في هذه الأرض، وسخر له كل ما فيها مما فوقه وما تحته، وما عن يمينه وشماله، من قريب، ومن بعيد، ليكون في خدمته: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

والقرآن يعلم الإنسان - كل إنسان - أن الله خلق كل ما في الكون؛ ليكون في منفعته وخدمته، صغيراً كان أو كبيراً، صامتاً أو ناطقاً، أحجاراً أو نباتاً أو حيواناً، برّاً أو بحرّاً أو جوّاً، وقد ملَّك الله تعالى الإنسان من الأدوات ما يسخر به هذه الأشياء والأحياء؛ لينعم بها، ويستفيد منها، ويشكر الله تعالى عليها: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥].

ولكن مما يُؤسَفُ له: أن الناس شغلهم الله عن الجَدِّ، وألهاهم الباطل عن الحق، وغرَّهم الشيطان عن الله تعالى ربهم الأعلى، الذي خلق فسوّى، والذي قدَّرَ فهدى، ولذلك لم يتركهم الله تعالى لشياطين الشر والإفساد، تضلهم وتهديهم إلى عذاب السعير، بل بعث فيهم رسلاً منهم، مزوِّدين بمنح وعطايا، تدل على أنهم لا يمثلون أنفسهم، بل يمثلون الخالق الأعظم، الذي أرسلهم هداة إلى البشر، مبشرين ومنذرين ومعلِّمين، وبذلك قاموا بدور كبير في هداية الخلق، وإقامة الحق، وبسط العدل، وأداء الأمانة،

وتوثيق الحقوق، ونشر الأخوة والمحبة والعدل بين الناس، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وبهذه النبوات الهادية أصبح في البشر هداة صادقون، وغواة كاذبون، ودارت المعركة بين الفريقين، ودام الصراع بين الحق والباطل دهورًا طويلة.

• الرد على من يزعم أنه مخلوق للشر لا للخير:

ومن الناس من يعترف بأنه مخلوق، ولكنه يزعم أنه مخلوق للشر لا للخير، الله هو الذي خلقه كما خلق سواه من البشر، ومن غير البشر، ولكنه جعل تركيبته تختلف عن غيره، وجعل طبيعته تميل إلى الشر لا إلى الخير!.

والحق أن كل الناس خلُقوا مهَيَّئين للخير والشر، للنفع والضرر، للهداية والإضلال، للإسعاد والإشقاء، ولكن الإنسان مُطالب بفعل الخير والبعد عن الشر، التركيبية الأصلية قابلة للميل إلى أيّ الاتجاهين، فهناك من وجّه ميزاته ومكتسباته - بما وهبه الله من عقل، وما حباه من إرادة، وأحيانًا ما أنزل عليه من كتاب، وما بعث له من رسول - إلى الصلاح والخير والهدى، فاهتدى إلى الحق، وسلك سبيل الخير، ونهَج نهج الرشَد، ومن إخوانه من سار عكس هذا السبيل، فعطّل ما عنده من موارد الحق، ومن منارات الهدى، فمال عن الحق، وحاد عن الخير، وأعرض عن الرشَد، وسار في الطريق الذي يؤدي إلى الردى والبوار.

الحقيقة التي نقرؤها في كتاب الكون، كما نقرؤها في كتب الله المنزلة، وآخرها القرآن العظيم، الذي حفظه الله كما أنزل، لم يتغير فيه سطر ولا كلمة ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]: أن الإنسان خلُق من خلق الله تعالى، خلُق قابلاً

للأمرين معًا، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: طريقي الخير والشر، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. وعليه أن يجتهد ويعمل لتغليب جانب الهدى والحق على غيره، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا • فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا • قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا • وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

• من يزعم أنه مجبور من القدر الأعلى:

ومن الناس من يقول: إنه ليس حُرًّا حرية مطلقة، ولكنه محكوم بقيود تُفرض عليه، لا يستطيع أن يرفضها، ولا أن يضادها، ولكنها تقهره قهراً، وتجبره جبراً، فهو أمامها كالريشة في الهواء، أو كالماء في الزجاج، هذا الذي يسميه الناس (القدر) الذي يحكم الإنسان، ويحكم غير الإنسان، ولكن حكمه للإنسان أكثر من غيره.

هؤلاء الذين يسمونهم (الجبريين) أي: الذين يعتبرون الإنسان مجبوراً بحكم القدر الأعلى، وكل إنسان قد كُتِب عليه مصيره النهائي، من قبل أن يُخلق: أفي الجنة أم في النار؟ وهذه النتيجة معلومة، ولا يمكنه الفكك منها، سواء أكانت حسنة أم سيئة، وسواء أكانت عاقبتها النعيم المقيم، أم العذاب الأبدي.

ولكن كل هذه تعلّات هابطة متفككة مريضة، هناك قدرٌ أعلى، ولكن هذا القدر يضبط الكون بقوانين، ويضبط السلوك بقواعد، ويضبط الحياة بأديان وشرائع وأخلاق، ولا يسلب القدر الأعلى الإنسان ما أعطاه له خالقه من عقل وإرادة وقدرة، يمارس بها كلها حياته باتجاهاتها المتنوعة، وخياراتها المتناقضة.

وكتابة الله لمقادير الناس، إنما يكتبها لنفسه، لا تفرض على الناس شيئاً، حتى ما يفعله الله بخلقه مكتوب عليه، فهل هو سبحانه مجبور على شيء من هذا؟ كيف وهو الفاعل المختار، والواحد القهار؟.

• القدر لا يفرض سلوكاً معيناً على الإنسان:

إننا نرى الأخوين في الأسرة الواحدة، يميل أحدهما إلى الخير ويحبّه، ويسلك طريقه، فيحبّه كل من حوله، ويدعو له، ويهتف باسمه. ونرى أخاه بجانبه، ابن أمه وأبيه، الأب واحد، والأم واحدة، والتربية واحدة، والبيئة واحدة، ولكنه يسلك طريقاً خلاف طريق أخيه، بل هو يعاديه، بلا سبب منه، لم يؤذِه أخوه في شيء من ملكه، ولم يتناول عليه في شأن من شؤونه، ولكنه حسده لأمر ليس له فيه مدخل، ولا سبب مباشر.

إنها القصة المعروفة في تاريخ البشرية منذ فجرها؛ قصة ابني آدم، الخير والشرير، أو هابيل وقابيل، الابن الطيب والابن الخبيث، قصة الجريمة العدوانية في الأسرة الأولى للبشر، التي قصّها علينا القرآن لتكون عبرة للناس، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّنِي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوَلِّتُنِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ *﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣١].

• الإنسان هو الذي يصنع مصيره بيده:

انظر إلى هذه القصة العجيبة حقًا، قصة الأخوين ابني آدم أبي البشر من صلبه، حين قَرَّب كل واحد منهما إلى الله الذي يؤمن به قربانًا، كل واحد قَدَّم إليه مما عنده، أحدهما زارع، والآخر راعٍ، فقدمًا قربانين إلى الله، وكان عادة القوم أن القربان إذا تقبله الله نزلت نار من ناحية السماء فتأكله، وهذا دليل القبول.

فيبدو أن قربان الأخ الطيب الراعي، ولنفرض أنه كبش من الغنم، سرعان ما نزلت من السماء نار فأكلته، فدل ذلك على قبول الله لهذا القربان، والله تعالى يعلم أن هذا الأخ الطيب قد تخيَّر أفضل ما عنده، وقَدَّمه إلى الله، وهو غير آسف على ذلك، بل هو فرح به، مطمئن إليه، فلا غرو أن قبله الله تعالى منه.

أما قربان أخيه، الابن الخبيث من ولدي آدم، فلم تقترب منه النار، وكان عليه أن يسأل نفسه: لماذا لم يُتَقَبَّل قرباني؟ لعله لم يقدم أحسن ما عنده من أنواع الزرع! لعله قَدَّم شيئًا قليلًا لا يكاد يصلح! لعله كان عنده أشياء أفضل مما قدمه، ولكنه آثَرَ إبقاءها، ولم يؤثر تقديمها، لا بد أنه أغفل كذا، وأنه نسي كذا..

ولكن الأخ الشرير لم ينظر في نفسه وقربانه وعمله، وماذا ينقصه؟ وكيف يكمله؟ وهل إذا رُفِضَ قُربانه في هذه المرة سيرفض كل مرة أم يمكن أن يقبل مرة أخرى؟.

كان يجب أن يهنئ أخاه بقبول قربانه، ويقول له: علّمني ماذا فعلت حتى قبل قربانك. أما أن يكون العلاج هو استعمال القوة الباطشة، ضد الطرف الذي لا ذنب له، والتعدّي عليه بالبطش والقتل، فهذا لا شك من العدوان الأثيم.

القتل هنا جريمة نتجت من هذا الفرد الغاشم الآثم، لا يقال هنا: إن المجتمع هو الذي دفع هذا الرجل. فلم يوجد المجتمع بعد، نحن في الأسرة الأولى، وما زال الأبوان باقيين وحيين، وإنما هو الشر الذي يجري في دم الإنسان، كما يجري الخير في دمائه، والنفس هي التي تُزَيِّن للإنسان الإساءة إلى أخيه الطيب، فاستجاب لها: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

ولكن هذا الأخ الذي ارتكب هذه الجريمة الشريرة في الأرض - جريمة القتل بغير قصاص، وبغير فساد في الأرض - ظل حاملاً أخاه على كتفه، لا يعرف ماذا يفعل به؛ لم ير إنساناً قُتِل أو مات قبل ذلك، هذا أول ميّت من بني آدم، وقد حار فيه فاعل الجريمة.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١].

هكذا يُعَلِّمُ الله البشرية، فيعلّمها بعضها من بعض، ويعلمها مما هو أدنى منها وأقل في القيمة الخلقية، فلهذا بعث الله هذا الطائر المعروف عند الناس، الذي يسمونه: الغراب. كان مع الغراب غرابٌ آخرٌ ميّت، فلَقَّنَ الغراب الذي ليس له عقل الإنسان (ابن آدم القاتل) درساً في التعامل مع هذا الموقف؛ إذ بحث الغراب بمنقاره في الأرض، ليريه كيف يوارى سوءة أخيه، الأرض هي المأوى للإنسان حين يفقد روحه لأي سبب، ويصبح جثة هامدة، فعليك أن تحفر في الأرض بأي أداة معك، وتضع فيها فقيدك الميت، ولذلك تأسف القاتل على نفسه، وقال: ﴿يَوَيْلَ لِيَ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

أعذار غير مقبولة



والناس يحاولون التنصل من أعمالهم ومسؤولياتهم بأعذار وتعلّلات شتى، منها:

• الأصدقاء هم الذين ضلّلوني:

من الناس من يحاول أن ينجّي نفسه من هول المصيبة، ويقول: لست أنا الذي وقعت في هذا الضلال، أنا إنسان بريء، الذي أوقعني في الخطيئة هو فلان، صديق عمري، وزميل دراستي، ورفيق دربي؛ هو الذي سلّط عليّ، وكأنه شيطان يوسوس لي، ويغريني بالابتعاد عن أهل الخير، ويوصيني بالالتحاق بأهل الشر، لقد ظلّ ينفث في صدري، ويردّد في أذني كلامًا لا يسمعه غيري؛ فيقول: ليس لك إلا عمر واحد، وهو أيام معدودة، وأنفاس محدودة، وهو مهما طال قصير، فلماذا تضيّعه في غير الشهوات التي تجنيها، والمكاسب التي ترتجئها؟ فلا بد لك من الطعام الهنيء، والشراب المريء، والملبس الرقيق، والمرأة الجميلة، والقصر المشيد، والبنيان الممتد، والخيّل المسومة، والأنعام والحرث، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، إلى غير ذلك مما يتحدث عنه المولعون بالدنيا وما فيها.

وما زال صديقه، أو أصدقاؤه الموالون له، والمحيطون به، يكيدون له كيّدًا، ويفتنونه رويدًا رويدًا، حتى لا ن لهم، وسقط في أيديهم، يصنع

ما يصنعون، ويقول ما يقولون، ويروّج ما يروجون، وهذا هو الذي تحدث عنه القرآن.

القرآن يذكر لنا في سورة الفرقان، تلاؤم الناس في يوم القيامة، وأن منهم من يُحْمَلُ بعض أصدقائه: أنهم أضلّوه عن السبيل، وحجبوه عن النور، وساروا في طرق العماية والغواية، وهي طرق لا تنتهي بأصحابها إلا إلى شر جسيم، يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

كما يذكر لنا القرآن أن في هذا اليوم العظيم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، يبقى أناس على أصفى ما يكونون أنفُسًا، وأطهر ما يكونون قلوبًا، لا تتأثر أخوتهم القائمة على المحبة الحقيقية، ولا ينال منها غشٌّ أو التواء، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ف نجد في هذا اليوم الأصدقاء والأخلاء والأصحاب الذين يزعمون في الدنيا أنهم في غاية النقاء، يعادي بعضهم بعضًا، ويخون بعضهم بعضًا، إلا فئة قليلة منهم، وهم الذين سمّاهم القرآن ﴿الْمُتَّقِينَ﴾، أي: أصحاب التقوى. والتقوى: أن تتقي الله سبحانه وتخشاه، تخشى لقاءه، وتخشى محاسبته، وتعمل أقصى ما في وسعك لترضيه، بأداء ما يطلبه منك، والحذر مما ينهاك عنه.

فالمتقون يظهرون يوم القيامة في غاية الإخاء والمودة والمحبة والإيثار.

لهذا يحذر الأنبياء والحكماء والأدباء والشعراء من قديم من الأصدقاء، لا بد للإنسان من صديق، ولكن العاقل هو الذي يحسن اختيار صديقه، فصديقه إما أن يهديه إلى الجنة التي فيها ما تشتهيهِ النفس، وتلذ الأعين، وهو فيها خالد لا يفنى، حي لا يموت، وإما يرديه في حفرة من حُفَر جهنم، التي من وقع فيها، فإنه لا يخرج منها، إلا بتوبة نصوح، يغسل فيها نفسه، ويظهر فيها كيانه، ويبدل فيها سيئاته حسنات.

وفي الحديث: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^(١). ويقول الشاعر:

اختر صديقك واصطفيه تفاخراً	إنَّ القرين إلى المقارن يُنسبُ
واحذر مصاحبة اللئام فإنها	تعدي كما يُعدي الصحيح الأجرُ
إنَّ القلوب إذا تنافر ودُّها	مثل الزجاجة كسرها لا يُشعبُ! ^(٢)

• سبب شقاء الإنسان هو المرأة:

ومن الناس من يحاول أن يتصور شقاءه أو يصوره على أنه يتمثل في المرأة، فهي التي كانت شيطانه الذي وقف في طريق هدايته، أو هي التي مكنت الشيطان من السيطرة على الإنسان، فأسقط في طريقه الطرفين: المرأة والرجل معاً.

وكثير من الناس يحاولون أن يستدلوا بقصة آدم وحواء، أبوي البشر، كما ذُكرت في التوراة، ويتخذون من هذه القصة أداة لتفسير وقوع الإنسان

(١) رواه أحمد (٨٤١٧) وقال مخرجه: إسناده جيد، وأبو داود في الأدب (٤٨٣٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٨) وقال: حسن غريب، والحاكم في البر والصلة (١٧١/٤) وقال: صحيح إن شاء الله. ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

(٢) الأبيات لصالح بن عبد القدوس.

في الخطيئة، والأكل من الشجرة التي نُهي عنها، حين استجاب لدعوة المرأة، التي استجابت لوسوسة الشيطان.

وهذا ما توحى به ألفاظ القصة المروية في الكتاب المقدس، أو قل: في العهد القديم، أو في سفر التكوين من أسفار التوراة الخمسة.

والواقع: أن هذا المذكور في التوراة ليس هو الحقيقة الصافية من كل غبش، النقية من كل خلل، بل المعروف أن التوراة التي أنزلها الله على سيدنا موسى، لم تبَقَ على ما تركها الله عليه، بل أصابها من الضياع والتحريف والنسيان والإحراق ما أصابها على اختلاف العصور، ومرّ الدهور، وهدم القصور، وعمى القلوب التي في الصدور، وانطماس السطور، ونسيان المذكور.

ومن المؤكد أن الله لم يتكفل بحفظ التوراة ولا الإنجيل، بل استحفظهما أهلهما، ووكّل إليهم حمايتهما وصيانتتهما وحفظهما، ومع هذا ضاعا منهم، ثم كتبوهما من حفظ بعضهم، وأضاعوا منهما، وأضافوا إليهما، وبدّلوا فيهما، وغيروا كثيرًا من الكلم عن مواضعه.

أما قصة آدم كما عرضها القرآن - آخر الكتب السماوية التي أنزلت من السماء، والذي تولى الله تعالى حفظه وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وأكد حفظ القرآن بتأكيد هذه الآية: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ بصيغة الجملة الاسمية، وتأكيدها بكلمة (إن)، ووجود اللام في قوله: ﴿لَحَافِظُونَ﴾ - فتبين أن آدم هو الذي أغواه الشيطان، فنسي وأكل، وهو الذي عصى فغوى، وهو الذي اجتباه ربه إليه فتاب عليه وهدى، وهذا واضح تمامًا في سورة طه، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا

إِبْلِيسَ أَبَى • فَقُلْنَا يَتَّادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى • إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى • وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى • فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى • فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوَاءٌ تُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى • ثُمَّ اجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿ طه: ١١٥ - ١٢٢ ﴾ .

فالقصة هنا بينة تمام البيان: أن آدم هو المسؤول الأول، هو الذي أكل، وهو الذي عصى وغوى، وهو الذي اجتباه ربه فتاب عليه وهدى. وإذن، فكل ما أفادته الآيات الأخرى أن زوجه حواء إنما أكلت تبعاً له، فلم يكن لاثقاً بها أن تترك زوجها يأكل وحده، أو هكذا تصورت، فهو الذي أكل أولاً، وهي أكلت بعده، ولم توسوس له أو تُغرّه.

• سبب شقاء الإنسان هو الطوائف الأخرى المخالفة:

ومن الناس من يرى أن السبب في إضلاله عن الطريق، وإخفاء الحقيقة عليه، إنما هو: الطوائف الأخرى المخالفة للطائفة التي ينتمي إليها في المجتمع، أو في غيره، فكل طائفة منها ترى أنها ضاعت على يد الطائفة التي استغلتها، وسحبته من طريق الحق، وسلكتها في طريق الباطل، فلم ترَ (البيانات)، من الأدلة النيرة، والتي لم يعد فيها أي نجم يُرى منه النور، وهو يملأ الآفاق، لأن الآخرين - للأسف الشديد - حجبوه عنهم، فرغم ظهوره وإشراقه، لم يلتفتوا إليه، ولم يعطوا له أي اهتمام يليق به.

هكذا يرى كل فريق أن الفريق الآخر هو الذي أضله عن الطريق، عن الصراط المستقيم، سواء أكانوا هم السادة والكبراء، أم كانوا هم التابعين المستضعفين، الذين يسيرون عادة في ركاب المجرمين الطغاة، من الكبراء والسادة المضللين.

انظر إلى هؤلاء المتعارضين يوم القيامة، وكل قسم منهم يُحمّل وزره على القسم الآخر، والأقسام الأخرى، قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ • قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ • وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا •﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

ومن يقرأ القرآن الكريم، ويرى أصناف الناس في الآخرة، الذين استحقوا العذاب الأليم في النار، وكيف يُلقى كلُّ منهم وزرَ تخلّفه عن ركب المؤمنين، ومتابعة ممشى الإيمان، على الطوائف الأخرى من الطغاة والمستبدين، الذين كانوا يتعاملون مع الفقراء والضعفاء، ومن لا حظّ لهم من الناس في الحياة، كأنما يتعاملون مع الأنعام والمواشي، وهؤلاء المستضعفون يحمّلونهم المسؤولية في إضلالهم وإغوائهم، وإبعادهم عن صراط الله المستقيم، الذي دعا إليه عباده المرسلون، الذين بعثهم الله تعالى بكتبه وبرسالته، ولكن هؤلاء السادة المستكبرين عن عبادة الله تعالى، يقولون لهؤلاء: نحن لم نجبركم على اتباع طريقنا، أنتم الذين اتبعتمونا مختارين بكل إرادتكم.

اقرأ ذلك في عدد من سور القرآن، ففي سورة سبأ المكية يقول القرآن: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ • قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ • وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ

وظل الشيطان منذ أن خرج آدم من الجنة، واستخلف في الأرض؛ يعمل فيها بنفسه، وبذريته ورجاله، ليل نهار، لزرع الكفر، وغرس الإضلال، وإشاعة الفتن والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، فأضل الناس وأفسدهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنُتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

* * *



ماذا يقدم الدين الصحيح للإنسان؟

هل ينتفع الإنسان من الدين بشيء يفيد في حياته التي يعيش فيها؟
هل يقدم له حلاً لمشكلة، ولو كانت مشكلة عقلية أو نفسية أو اجتماعية؟
هل يساعده في أن يطعم من جوع، أو يأمن من خوف، أو يعز من ذل، أو
ينجو من ظلم، أو يقوم مع غيره في محاربة الطغيان والفساد؟.

هل يؤدي الدين دوراً من المساعدة الإيجابية للتغلب على مشكلات
الحياة؟ أم يظل الدين يحدثنا ويطيل الحديث ويكرّره عن الآخرة، وما
فيها من نعيم وسعادة للمؤمنين والصالحين، وما فيها من عذاب وشقوة
للكافرين والعاصين، دون أن يهتم بأمر الدنيا؟.

الواقع أنني هنا أقول ما أعرفه بموجب تخصصي في دراسة دين معين،
حفظت في طفولتي كتابه المقدس (القرآن الكريم)، وهو كتاب كبير،
حفظته وجوّدته عن ظهر قلب، والحمد لله.

ثم ظللت أدرس هذا الدين بمفرداته وکلياته، في معاهده وکلياته، في
الابتدائية والثانوية والجامعية والتخصصية. ثم درّسته دراسةً علياً لعدة سنين،
حتى حصلت على الأستاذية (الدكتوراه) من جامعة الأزهر، وأصبحت فيه
معلماً وأستاذاً، ومفتياً ومؤلفاً، وأكاديمياً وخطيباً، وصاحب برامج في الإذاعة
والتليفزيون، وصار لي نحو مئتي (٢٠٠) كتاب، ما بين صغير ومتوسط وكبير،
في مختلف نواحي العلم الإسلامي، والثقافة الإسلامية.

ولهذا أستطيع أن أقول: إن الدين الصحيح يستطيع أن يقدم للإنسان الذي يطلب منه: الهداية من الضلال، والرشد من الغي، والأمن من الخوف، والسكينة من الاضطراب والقلق، والحلول الناجعة النافعة من المشكلات المعقدة، التي عذبت الناس في حياتهم أفرادًا وأسرًا وجماعات ودولًا، ولم يجدوا منها مخرجًا، ولا من ضيقها فرجًا، ولا من عسرها يسرًا.

أقول لكم: يا أولي الألباب، ويا أصحاب البصائر، ستجدون في الإسلام - والله - كل ما تبحثون عنه، ولم تجدوه في أديان، أو فلسفات، أو حضارات أخرى؛ لأنها كلها مبنية على حق مختلط بباطل، أو على باطل خالص، وما بني على الباطل لا يثمر إلا باطلاً، فالحق لا ينبثق عن باطل، والخير لا يصدر عن شرٍّ أبدًا.

• الدين يحقق الأمن النفسي للإنسان:

ولقد ألفتُ من نحو ستين سنة كتابي (الإيمان والحياة)، ليقدم للبشرية أول ما تحتاج إليه من اليقين بالله والدار الآخرة، وهو الذي يعطي لكل إنسان ما هو في أشد الافتقار إليه من الأمان النفسي، الذي هو مشتق من الإيمان الروحي، الإيمان بآله قوي لا يضعف، قدير لا يعجز، غني لا يفتقر، جبار لا يخاف، من استنصر به نصير، ومن توكل عليه عز، ومن استعان به غلب، ومن تقوى به لم يضعف أبدًا، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ولذلك قال سيدنا إبراهيم الخليل للمشركين الذين يهددونه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ

بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١ - ٨٢].

وقد فسّر الرسول هنا (الظلم) بمعنى (الشرك)، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، واستدل بالآية على أن الظلم هو الشرك^(١).

• الغاية الأولى للإنسان: الربانية: أن يعيش لله وحده:

يصحّح الدين للإنسان غايته، بدل أن يخط في الحياة خبط عشواء، لا يعرف له غاية ولا هدفاً، وبدل أن يعيش لشهواته وملذاته يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، يأخذ الدين بيده إلى ربانية الغاية والوجهة، بالتعبّد لله تعالى، وهذه الربانية تعني: أن يجعل الإنسان غايته الأخيرة وهدفه البعيد هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته، فهذه هي غاية الإسلام، ومن ثمّ، فهي غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله وسعيه، وكدحه في الحياة: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

ولا جدال في أن للإسلام غايات وأهدافاً أخرى: إنسانية، واجتماعية، وثقافية، واقتصادية، وسياسية، ولكن عند التأمل نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر، وهو مرضاة الله تعالى، وحسن مثوبته. فهذا هو هدف الأهداف، أو غاية الغايات. هو الغاية الأولى، والغاية القصوى.

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: لما نزلت ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قلنا: يا رسول الله، أين لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]». رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٠)، ومسلم في الإيمان (١٢٤)، عن ابن مسعود.

في الإسلام تشريع ومعاملات، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستريحوا، ويبرؤوا من الصراع على المتاع الأدنى، ويفرغوا لمعرفة الله تعالى، وعبادته، والسعي في مرضيه.

وفي الإسلام جهاد و قتال للأعداء، ولكن الغاية هي: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وفي الإسلام حث على المشي في مناكب الأرض، والأكل من طبيباتها، ولكن الغاية هي شكر نعمة الله وأداء حقه: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد، إنما يقصد إلى إعداد الإنسان ليكون عبداً خالصاً لله، لا لأحد سواه، ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد.

ومعنى التوحيد: أن يعلم الإنسان أنه لا إله إلا الله، وأن يفردّه تعالى بالعبادة والاستعانة، فلا يشرك به أحداً، ولا يشرك معه شيئاً. وهذا معنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، التي يرددها المسلم في صلواته كل يوم، ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، كلما قرأ فاتحة الكتاب في ركعة من ركعات الصلاة.

ولقد خاطب الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بهذه الحقيقة، وأمره أن يعلنها ويبلغها للناس، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ * قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغْنَى اللَّهُ أَتْبَغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ * [الأنعام: ١٦١ - ١٦٤].

إن الإنسان لم يخلق لمجرد أن يأكل ويشرب، ويلهو ويلعب، ثم بعد ذلك يموت أو يَنفَق كما تنفق الدابة، كالذين حكى القرآن عنهم أنهم ﴿يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: ١٢]. إنما خُلِقَ الإنسان لغاية أُسمى.

يقولون: إن الأحقق يعيش ليأكل، والعاقل يأكل ليعيش.

ولكن يبقى هنا سؤال تتحتم الإجابة عنه، هو: ولماذا يعيش العاقل؟ إن العيش ليس غاية في نفسه، تقصد لذاتها، بل لا بد من هدف يعيش له الإنسان، فما هو؟.

أما الماديون، فلا يجدون لهذا السؤال في فلسفتهم جوابًا يشفي، وأما المؤمنون فيقولون: إن الإنسان يعيش ليعرف خالقه ﷻ، ويعبده، ويقوم بخلافته في الأرض.

فإذا كان الأحقق يعيش ليأكل، والعاقل يأكل ليعيش، فإن المؤمن يعيش ليعبد الله وحده.

يقرّر القرآن هذه الحقيقة بوضوح وجلاء، حين يذكر الغاية من خلق الجن والإنس، فيقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

الإنسان - إذن - لم يخلق لنفسه، فكل شيء في هذا الكون قد خُلق ليؤدي خدمة لغيره، وهو كذلك لم يُخلق لخدمة شيء آخر من مخلوقات هذا الكون، فكل ما في الكون سُخِّر لخدمته، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

كل ما في الكون قد خلق للإنسان. أما الإنسان نفسه فقد خلق لله جَلَّ جَلالُه، لمعرفة وعبادته، وأداء أمانته في الأرض. وكفى بهذا شرفاً وفخراً، فهو سيد في الكون، عبد لخالقه وحده.

• من ثمرات هذه الربانية في النفس والحياة:

ومما لا ريب فيه أن لهذه الربانية فوائد وآثاراً جمة في النفس والحياة، يجني الإنسان ثمارها في هذه الدنيا، فضلاً عن ثمراتها في الآخرة، وهي ثمار في غاية الأهمية، فمن آثار هذه الربانية وثمراتها:

أولاً: معرفة غاية الوجود الإنساني:

أن يعرف الإنسان لوجوده غاية، ويعرف لمسيرته وجهة، ويعرف لحياته رسالة، وبهذا يُحسُّ أن لحياته قيمة ومعنى، ولعيشه طعماً ومذاقاً، وأنه ليس ذرة تافهة تائهة في الفضاء، ولا مخلوقاً سائباً يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، كالذين جحدوا الله، أو شكوا فيه، فلم يعرفوا: لماذا وُجدوا؟ ولماذا يعيشون؟ ولماذا يموتون؟ كلا، إنه لا يعيش في عماية، ولا يمشي إلى غير غاية، بل يسير على هدى من ربه، وبينة من أمره، واستبانة لمصيره، بعد أن عرف الله، وأقر له بالوحدانية.

إنه لا يقول ما قال الشاعر الحائر المرتاب:

لبستُ ثوب العَيْش لم أستشِرْ وحرّت فيه بين شَتَى الفِكْرِ!
وسوف أنضو الثوبَ عني ولم أدرك لماذا جئت؟ أين المفر؟^(١)

(١) من رباعيات عمر الخيام، ترجمها للعربية الشاعر أحمد رامي.

أو ما قاله الآخر:

جئتُ لا أعلم من أين ولكنني أتيت! ^(١)

كلا، فقد اتضحت وجهته الربانية، وعرف من أين جاء؟ ولم جاء؟ وإلى من فراؤه؟ وأين قراره؟ إن حسبه أن يقرأ من كتاب ربه ما رد به إبراهيم خليل الرحمن على عبدة الأوثان، فقال: ﴿فَأَنَّهُمْ عُدُوِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٧ - ٨٢].

ثانيًا: الاهتداء إلى الفطرة:

ومن ثمرات هذه الربانية وفوائدها أن يهتدي الإنسان إلى فطرته التي فطره الله عليها، والتي تطلب الإيمان بالله تعالى، ولا يعوضها شيء غيره، يقول تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس كسبًا رخيصًا، بل هو كسب كبير، وغنى عظيم، فيه يعيش المرء في سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، فالكون كله رباني الوجهة، يسبح بحمد الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغًا لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله جلّ وعلا.

وستظل الفطرة الإنسانية تُجسّ بالتوتر، والجوع والظما، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

(١) قصيدة الطلاس، لإيليا أبو ماضي.

هناك تستريح من تعب، وترتوي من ظمأ، وتأمن من خوف. هناك تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان المنزل والأهل بعد طول الغربة، والضرب في أرض التيه. فآلقت عصاها واستقرَّ بها النَّوى كما قرَّ عينًا بالإيابِ المسافر^(١)

فإذا لم يجد الإنسان ربه - وهو أقرب إليه من حبل الوريد - فما أشقى حياته! وما أتعس حظُّه! وما أخيب سعيه!.

إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة.. لن يجد نفسه ذاتها، ﴿كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

فتصوّر إنسانًا يعيش دون أن يجد نفسه، وهو في رأي نفسه، وفي نظر الناس بشر عاقل، سميع بصير، بل لعلّه جامعي مثقف، ولعله - فوق ذلك - (دكتور) كبير في العلوم أو الآداب أو الفنون!.

وكيف يجد نفسه من لم يعرفها؟! وكيف يعرفها من حُجب عنها بالغرور والكبر، أو شُغل عنها باتباع الشهوات، والإخلاد إلى الأرض، والغرق في لذائذ الحس، ومطالب الجسد والطين؟!.

إن الإنسان خُلِقَ عجيب، جمع بين قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله؛ فمن عرف جانب الطين، ونسي نفخة الروح، لم يعرف حقيقة الإنسان.

ومن أعطى الجزء الطيني فيه غذاءه وريّه مما أنبتت الأرض، ولم يعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله، فقد بخش الفطرة الإنسانية حقها، وجهل قدرها، وحرّمها ما به حياتها وقوامها.

(١) البيت لمعقّر بن حمار البارقى، انظر: المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء، للآمدي، ص ١١٦، ت: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، نشر: دار الجيل - بيروت، ط ١، ١٩٩١م.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه (مدارج السالكين):

«فِي القلب شعث، لَا يُلْمُهُ إِلَّا الإقبال على الله. وفيه وحشة، لَا يزيلها إِلَّا الأنس بالله. وفيه حُزن، لَا يذهبهُ إِلَّا السرور بمعرفته، وصدق معاملته. وفيه قلق، لَا يُسْكِنُهُ إِلَّا الاجتماع عليه، والفرار إليه. وفيه نيران حشرات، لَا يطفئها إِلَّا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إِلَى وقت لقائه. وفيه فاقة، لَا يَسُدُّها إِلَّا محبته، والإجابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، وَلَوْ أُعْطِيَ الدنيا وما فيها، لَمْ تُسَدِّ تلك الفاقة أَبَدًا»^(١).

وهذا ليس كلام عالم فحسب، بل كلام ذائق مجرَّب، يقول ما خبره وأحسَّ به فِي نفسه، وما رآه ولاحظه فِي الناس من حوله.

إنها الفطرة البشرية الأصيلة التي لَا تجد سكينتها إِلَّا فِي الاهتداء إِلَى الله والإيمان به، والالتجاء إِلَيْهِ.

إنها الفطرة التي لَمْ يملك مشركو العرب فِي جاهليتهم أَنْ ينكروها مكابرةً وعنادًا، ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقد يتراكم على هذه الفطرة صداً الشبهات أو غبار الشهوات، وقد تنحرف وتتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء، أو الطاعة العمياء للسلادة والكبراء. وقد يصاب الإنسان بداء الغرور والعُجب فيظن نفسه شيئاً يقوم وحده، ويستغني عن الله!.

بَيِّنْ أَنْ هذه الفطرة الأصيلة تذبل ولا تموت، وتكمن ولا تزول؛ فإذا أصاب

(١) مدارج السالكين (١٥٦/٣).

الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها، ما لا قبل له به، ولا يد له ولا للناس في دفعه ولا رفعه، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة، وتبرز الفطرة العميقة الكامنة، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس، داعيًا ربه، منيبًا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضارات، فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بإله، حتى قال أحد كبار المؤرخين^(١): «لقد وُجِدَتْ في التاريخ مدنٌ بلا قصور ولا مصانع ولا حصون، ولكن لم توجد أبدًا مدن بلا معابد».

والانحراف الكبير الذي أصاب البشرية في تاريخها الطويل لم يكن بإنكار وجود الله والعبودية له، إنما كان بتوجيه العبادة لغيره، أو إشراك آلهة أخرى معه من مخلوقات الأرض أو السماء.

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعمار، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق، وكان نداؤهم الأول إلى قومهم: ﴿أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]؛ ذكر القرآن هذا القول على لسان نوح وهود وصالح وشعيب في سورة [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، وقد تكرر معناه في عدة سور^(٢).

أما وجود الله فكان أمرًا مسلّمًا به، مفروغًا منه، لدى كافة الأمم في كل الأزمنة والعصور، ولم يجادل فيه إلا قلة مسحوقة، لا يقام لها وزن، ولهذا لم يشغل رسل الله أنفسهم بإثبات وجود الله، وإقامة الأدلة عليه، بل

(١) هو المؤرخ اليوناني المشهور بلوتارك.

(٢) من كتاب: الإيمان والحياة، للمؤلف، ص ٨٣ - ٨٥، نشر مكتبة وهبة، الطبعة الثامنة عشرة،

بإثبات وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة دون غيره، وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ثالثاً: سلامة النفس من التمزق والصراع:

ومن ثمرات هذه الربانية: سلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتى الاتجاهات.

لقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى، وركّز همومه في هم واحد، هو العمل على ما يرضيه سبحانه.

ولا يريح النفس الإنسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها ووجهتها في الحياة، فتعرف من أين تبدأ، وإلى أين تسير، ومع من تسير.

ولا يُشقي الإنسان شيءٌ مثل تناقض غاياته، وتباين اتجاهاته، وتضارب نزعاته، فهو حيناً يُشَرِّق، وحيناً يَغْرِب، وتارة يتجه إلى اليمين، وطوراً يتجه إلى اليسار، ومرة يُرضي زيداً فيَغضبُ عمرو، وأخرى يُرضي عمراً فيَغضبُ زيداً، وهو في كلا الحالين حائر بين رضا هذا وغضب ذاك.

وَمَنْ فِي النَّاسِ يُرْضِي كُلَّ نَفْسٍ وَبَيْنَ هَوَى النَّفُوسِ مَدًى بَعِيدٌ؟! ^(١)

إن عقيدة التوحيد قد منحت المسلم يقيناً بأن لا رب إلا الله يُخاف ويُرجى، ولا إله إلا الله يُجتنب سخطه، ويُلتَمَس رضاه.

وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية من قلبه، ورضي بالله وحده ربّاً، عليه يتوكل،

(١) البيت لناصيف اليازجي.

وإليه ينيب، وفي فضله يطمع، ومن قوته يستمدُّ، وله يتودد، وإليه يحتكم، وبه يعتصم، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

فأين هذا من المشرك الذي تعددت أربابُه وتضاربت وجهاته، وقد مثله القرآن الكريم بخادم له أكثر من سيد، وهم شركاء متشاكسون، غير متوافقين، كلُّ يأمره بضد ما أمره به الآخر، ويريد منه غير ما يريد الآخر، فهُمُّهُ متفرق، وقلبه مشَّت.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]. ومعنى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾، أي: خالص لرجل واحد، لا شركة فيه ولا مشاكسة، فهو يعرف سيده، ويعرف ما يطلبه وما يرضيه. وهذا مثل المؤمن الموحد.

وقال يوسف عليه السلام لرفيقه في سجن مصر، وكانا يعبدان مع الله آلهة أخرى: ﴿يَصَدِّحِي السِّجْنَءَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ • مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

رابعًا: التحرر من العبودية للأنانية والشهوات:

ومن ثمرات هذه الربانية: أنها - حين تستقر في أعماق النفس - تحرر الإنسان من العبودية لأنانيته، وشهوات نفسه، ولذات حسه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية، ورغباته الشخصية.

وذلك أن الإنسان (الرباني) يقفه إيمانه بالله وباليوم الآخر موقف الموازنة: بين رغبات نفسه ومتطلبات دينه، بين ما تدفعه إليه شهواته وما

يأمره به ربه، بين ما يدفعه إليه الهوى وما يمليه عليه الواجب، بين متعة اليوم وحساب الغد، أو بين لذة عاجلة في دنياه وحساب عسير ينتظره في آخره.

وهذه الموازنة والمساءلة جديرة أن تخلع عنه نير العبودية للهوى والشهوات، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من الأنانية والبهيمية، أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعياها وإرادتها، لا بوحى بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية.

فإذا لم يرتق إلى هذا الأفق الوضيء، فإنه يظل رانثا إليه، حريصا عليه، متشبثا به، وإذا انحدر عنه يوما فسرعان ما يعود إليه تائبًا من ذنبه مستغفرا لربه.

فليس الإنسان الرباني هو الإنسان الملاك، الذي لا يقع في خطيئة ولا خطأ، فهذا لا وجود له إلا في عالم الخيال أو المثال، إنما الإنسان الرباني هو الإنسان الأواب الذي يشعر بالتقصير كلما زلّ، ويرجع إلى الله كلما أذنب: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّيْبِكَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

ولهذا عدّد الله أوصاف المتقين، الذين أعدّ لهم جنة عرضها السماوات والأرض، وكان منها: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ليس عجيبًا - إذن - أن يتورط الإنسان في معصية الله، وتغلبه شهوته وهواه، فقديمًا عصى آدم أبو البشرية ربّه، وغرّه الشيطان حتى ارتكب ما نهاه الله عنه من الأكل من الشجرة، ولكنه ما أسرع ما تاب وأناب، وقرع باب ربه بالاعتراف والاستغفار: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا

وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿ [الأعراف: ٢٣] ، ﴿ فَلَقَّحْ ءَادَمَ مِنْ رَّبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿ [البقرة: ٣٧] .

ولقد عصى آدم، وعصى إبليس، فغفر لآدم، ولم يغفر لإبليس؛ لأن معصية آدم كان سببها الضعف والنسيان: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴿ [طه: ١١٥] ، ثم أعقبتها توبة نصوح، تمحو أثر الذنب، كما تمحو إشراقة الصبح ظلمة الليل، ﴿ ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ فَثَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿ [طه: ١٢٢] .

أما معصية إبليس فكان سببها الكبر والتمرد على أمر الله: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿ [الأعراف: ١٢، ص: ٧٦] ، ولم يعقبتها إلا الإصرار والضلال: ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿ [الأعراف: ١٦ - ١٧] .

إن الإنسان الرباني قد تتاح له الشهوة الحرام، تعرض عليه بلا رقيب ولا حسيب من البشر، فيعرض عنها حياءً وحرصاً على أن يُظللَّ الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله، فيقول ما قاله سيدنا يوسف عليه السلام حين راودته امرأة العزيز عن نفسه: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴿ [يوسف: ٢٣] .

إن الإنسان الرباني قد يتاح له المال الحرام، عن طريق الرشوة السافرة أو المُقنَّعة، أو استغلال المنصب والنفوذ، أو غير ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، فيرفضه راضياً بالقليل، قانعاً بالحلال، موقناً أن كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به، وهو لا يحب أن يشتري جهنم بشيء، ولو كان ملك المشرق والمغرب، حسبه أن يتلو قول الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿ [يونس: ٥٨] .

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له الجاه والمنصب الحرام، عن طريق موالاة المعتدين، أو معاونة الظالمين، أو السير في ركاب

الطاغين، فيأبى عليه دينه، وينهاه إيمانه، متذكراً قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له أن يتمكن من خصمه، ويستطيع أن يشفي منه نفسه، وأن يرد له الصاع صاعين، فينقع غلته بالانتقام منه، ويستمتع بقهره وإذلاله، لكن ربانيته السمحة تأبى عليه، إلا أن يقف موقف العفو والصفح والسماح، فيقول ما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

• تفاوت الغايات والأهداف لدى الأفراد:

والناس تتفاوت غاياتهم وأهدافهم - أفراداً وجماعات - تفاوتاً بعيداً، ويختلفون فيها اختلافاً شاسعاً، يكاد يرتفع فيها بعضهم إلى أفق الملائكة، وينزل بها بعضهم إلى حضيض الشياطين.

وهذا في الواقع هو الاختلاف الأكبر والأعمق بين الناس؛ أعني الاختلاف على الأهداف.

أما الاختلاف على الوسائل والطرائق، فهو أخف وأهون، بعد الاتفاق على الغاية والوجهة.

وقد قال أحد الشعراء:

كُلُّ مَنْ فِي الْوُجُودِ يَطْلُبُ صَيْدًا غَيْرَ أَنَّ الشَّبَاكَ مُخْتَلِفَاتُ!

وكان أولى به أن يقول: غير أن الصُّيُود (جمع صيد) مختلفات؛ لأن الخلاف الأكبر بين البشر ليس على نوعية الشَّبَاكَ، التي بها يحصلون على صيدهم، بل على الصيد ذاته: ماذا يكون؟ وأين يكون؟ وكم يكون؟ وكيف يكون؟!

إذا نظرنا إلى الأفراد وغاياتهم وجدناهم أصنافاً عديدة ومتنوعة:

أولاً: بعض الناس غايته عبادة نفسه وشهواته ومصالحه:

فمنهم من يعيش حياته غارقاً في لذاته، دائراً حول مطامح نفسه، يدور حول عبادة (ذاته)، يطوف بها كالوثني بصرمه، لا يخترق حجاب الحس إلى ما وراء المادة، ولا يرنو ببصره إلى شيء وراء دنياه العاجلة، وشهواته البهيمية، ومطالبه المادية الأنانية الآنية.

وفي سبيل هذه الغاية، لا يبالي أن يضحي بكل ما يعوقه، ويقف في سبيله، من القيم والمثل والمعتقدات، وبكل من يعوقه ويقف في طريق شهواته من البشر.

يفعل ذلك جهرة إن ملك القدرة عليه، وكان ذا جاه وسلطان، وقد يرتكبه سراً وخفية؛ فراراً من طائلة العقاب والقانون.

في سبيل شهواته وأهوائه، ومطامعه ومصالحه، لا يهمه أن يبذل العرض، أو يهدر الشرف، أو يضيّع الأهل والولد، أو يبيع الصديق، أو يخون الوطن، أو يتمرد على العقيدة.

لا يحجزه عن ذلك ضمير، فقد مات الضمير، وأهيل عليه التراب، ولا إيمان، فلا إيمان لمن كان إلهه هواه، وشهوته معبوده، ولا عقل، فإن شهواته عطلت عقله، وأهواءه أغلقت منافذ تفكيره، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرٍ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وقد عرفنا هذا الصنف (الأناني) وجربناه، وعانينا منه الأمرين، ولاقت الأمم قديماً وحديثاً على يديه الويلات بعد الويلات.

وعليه نبّه القرآن في كثير من آياته؛ مثل:

- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

- وفي سورة أخرى يقول: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤].

هذا الصنف البهيمي الأناني، عابد هواه، قد خرب أجهزة المعرفة التي منحه الله إياها، من الأسماع والأبصار والقلوب، وعاش حياة أدنى مرتبة من الأنعام، وأضل سبيلاً. وإنما كانت كذلك لأمرين:

أولهما: أن الأنعام تؤدي مهمتها المنوطة بها في الوجود، فلم تُرْ بقرّة تمردت على أن تُحلب، ولا جملٌ تمرّد على أن يُركب، وإنما تؤدي رسالتها في خدمة الإنسان، تحرث الأرض، وتسقي الحرث، وتحمل الأثقال، وتدر اللبن، وتعطي من أشعارها وأصوافها وأوبارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين.

والثاني: أن هذه الأنعام لم تؤت ما أوتي الإنسان من المواهب الفكرية والروحية، ولم يُسَخَّر لها ما في السماوات وما في الأرض، ولم يبعث لها رسول، ولم ينزل عليها كتاب.

وإنما الذي أوتي هذا كله هو الإنسان، فإذا أهمل هذه النعم، ولم يشكرها، ونسي رسالته، وعاش لبطنه وفرجه وشهوته، كما تعيش الدواب، كان بلا ريب أضل منها سبيلاً.

ثانيًا: من الناس مَنْ غايته الإذلال والإضرار والإفساد:

ومن الناس من لا هدف له في الحياة إلا إذلال الناس والإضرار بهم، والكيد لهم، كأن رسالته التي خلق لها الإفساد في أرض الله، والعدوان على خلق الله. استحالت نعم الله في يديه إلى سياط للإيذاء، وأسلحة للفتك، وآلات للتدمير. هذا الصنف كالذي قبله، يعيش لدنياه العاجلة، ولأنانيته البشعة، ولكن يفترقان في المزاج فقط.

فإذا كان اتجاه الصنف الأول أنانيًا شهوانيًا، فهذا ترى اتجاهه أنانيًا عدوانيًا. الصنف الأول فقد خصيصة الإنسان، واستحال إلى حيوان، وهذا الصنف فقد كذلك خصيصة الإنسان، ولكنه استحال إلى وحش مفترس، لا يكتفي بأن يتمتع، ولكن يريد العدوان على غيره.

ونحن نقول: إن الإنسان السادي الذي يحب الإيذاء شر من الوحش، فالوحش لا يريد من غيره إلا أن يُشبع جوعه، والإنسان المفسد لا يكفيه ما يكفي الوحش، بل يعمل على الإضرار بالآخرين، فهو يتحول من إنسان إلى شيطان، فالشيطان لا هم له إلا الإفساد والكيد والتضليل والإغواء.

وهذا الصنف هو الذي لعنه الله وذمه في كتابه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

هذا الصنف إذا تمكن من رقاب البشر يومًا ما بولاية أو رئاسة أو نفوذ، وجدته نمرودًا كنمرود إبراهيم، يقول: أنا أحيي وأميت!.

أو فرعونًا كفرعون موسى، يذبح الأبناء، ويستذل النساء!.

أو طاغية كنيرون الذي أحرق روما، أو غيره من جبابرة التاريخ.

فإذا لم يكن له سلطان نمرود ولا فرعون ولا نيرون، كان طاغية صغيراً: ذليلاً لطاغية كبير.

والقرآن قد حكم بالإثم والهلاك على فرعون ووزيره وجنوده جميعاً؛ لأن الذي يخلق فرعون الكبير إنما هم أعوانه من الفراعنة الصغار، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨].

وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُنُودُهُ، فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾. وجعلناهم أئمةً يدعون إلى النكارِ ويومَ القيامة لا يُصْرُونَ. ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٠ - ٤٢].

وقد يغطي هذا الصنف الذي خبث باطنه بظاهر مزخرف، ولسان يخدع الناس بمعسول القول، وحلو الكلام، فإذا سبرت غوره لم تجد وراء هذا الظاهر إلا باطناً خراباً، وضميراً ميئاً، ونفساً متطاولة على الخلق، مستكبرة عن الحق، مقبلة على الشر، معرضة عن الخير.

كهذا الذي وصفه القرآن، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسلُ والله لا يحب الفساد. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

ثالثاً: من الناس من لا يعبد إلا الله وحده:

وثمة صنف آخر غير هذا وذاك، صنف لا يعبد نفسه، ولا يدور حول ذاته دوران الحمار في الرحى، أو الثور في الساقية!.

إنه يعبد الله وحده لا شريك له، فهدفه مرضاته، وغايته محبته والقرب

منه وحسن الاتصال به، لا يريد إلا وجهه، ولا يبتغي إلا مثوبته، لا يحب ولا يبغض إلا فيه، ولا يعطي ولا يمنع إلا له.

أما الدنيا، فهي عنده أداة لا هدف، ووسيلة لا غاية، فهو يملكها ولا تملكه، ويسخرها ولا تسخره، ويجعلها في يده، ولكن لا يملأ بها قلبه.

إنما يدعو ربه بما دعا به محمد ﷺ: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا»^(١).

وهذا الصنف (الرباني) الذي عاش لله وبالله.

صلاته ونسكه لله، ومحياه ومماته لله، ونيته وعمله لله، وجهده وجهاده لله.

إنه يفعل الخير للناس، ويُسدي المعروف للضعفاء والمساكين، ولكنه لا يطلب منهم ثمنًا لمعرفه؛ لأن غايته أن يحمده الله، لا أن يحمده، وأن يرضى عنه الله لا أن يرضوا عنه، ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

إنه يكف يده عن الشر، ولسانه عن الأذى، ولا يقابل السيئة بالسيئة، بل يدفع بالتي هي أحسن، لا خشية من أحد، بل خشية من الله ﷻ.

إنه يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويصلح بين الناس، ويميط الأذى عن الطريق.

إنه يُعلِّم الجاهل، ويهدي الحائر، ويرشد الضالَّ، ولا يطلب جزاءه إلا من الله، وشعاره في ذلك ما ذكره الله تعالى على ألسنة رسله حين قال كل رسول لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢) وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى، في عمل اليوم والليلة (١٠١٦١)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٨٣)، عن ابن عمر.

إنه يضع رأسه على كفه، ويُقدِّم روحه فداءً للحق، ويبذل النفس والمال ذِيَادًا عن القيم والحرَمَات، ولكنه لا يفعل هذا ليُذكر اسمه في قائمة الأبطال، ولا ليرى مكانه وتحدث عنه أجهزة الإعلام، ولا ليحوز غنيمة دنيوية، ولكن لتكون كلمة الله هي العليا، وليُوفَّى بالصفقة التي عقدها الله معه حين اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

والعجيب أن هذا الصنف الذي فَنِيَ عن حَظِّ نفسه من أجل حقِّ ربه، والذي نَسِيَ ذاته وذكر الله وحده، هذا الصنف هو الوحيد الذي يعمل في الحقيقة من أجل نفسه: من أجل نجاتها وسعادتها.

إنه - عند التأمل - أوعى الأصناف وأحرصها على سعادة نفسه، ولكنه - بنور بصيرته، وعمق تفكيره - لم يبيعَ آجلاً بعاجل، ولا باقياً بفانٍ. وقد قال أحد حكماء الصالحين: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، والآخرة خَزَافاً يبقى، لوجب على العاقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني! فكيف إذا كانت الدنيا هي الخزف الفاني، والآخرة هي الذهب الباقي؟!.

والحقيقة التي لا ريب فيها، أن النسبة بين هذه الحياة الدنيا وبين الآخرة أكبر وأبعد وأعمق مما بين الخزف والذهب بكثير وكثير، ولكن الأمثال تُضرب للتقريب والتوضيح.

ولا شك أن أخسر الناس، وأظلمهم لنفسه، من حَرَمَهَا سعادة الأبد، ونعيم الأبد، من أجل متعة عارضة، وشهوة زائلة، وأن أربح الناس بضاعةً، من باع لذةً فانية، أو شهوة عاجلة، واشترى جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

والواقع أن هذا الصنف لم يخسر دنياه حين أثر آخرته، فوجّه لها إرادته، وسعى لها سعيها وهو مؤمن.

لقد كسب الحياتين، وجمع الحسنتين: حسنة الدنيا، وحسنة الآخرة، اللتين يحرص عليهما المؤمنون، ويسألونهما الله سبحانه: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

إن الربانية قد تحرم الإنسان من بعض اللذائذ العاجلة، وبعض المنافع القريبة، ولكنها تحميه بهذا الحرمان، من شرور ومخاطر كانت ستعود بالضرر المؤكد عليه، أو على مجتمعه، أو على الإنسانية. كما سنشير إلى ذلك بعد. وهي مع هذا تمنحه - في مقابل هذا الحرمان الجزئي الموقوت - سكينّة نفسية، وطمأنينة روحية، لا تُقدّر قيمتها بمال؛ لأنها هي سر السعادة التي ينشدها كافة البشر، فلا يجدها إلا القليل.

وهي السعادة التي قال فيها بعض المؤمنين الذين ذاقوا حلاوتها: لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!.

لقد كان الصنف الأول هو الإنسان الحيواني.

وكان الصنف الثاني هو الإنسان الشيطاني.

أما الصنف الثالث فهو الإنسان الرباني.

وتسمية الصنفين الأولين بالإنسان تسمية مجازية، فإن الصنف الثالث وحده هو الإنسان.

• الدين يرد الإنسان إلى فطرته، فيلتقي بعباد الله في التاريخ كله:

ومما يقدمه الدين للإنسان: أن يرده إلى الفطرة السليمة، التي لا تعرف إلها غير الله، وهو الذي عبده الناس من قديم قبل أن تضلهم الشياطين

بعبادة الطواغيت، واتخاذ الشياطين أولياء من دون الله، حتى أقنعهم رسل الله باجتناّب هؤلاء والبعد عنهم، وبذلك انتصرت البشرية المهتدية على البشرية التي أضلتها الوثنية، وصرفتها بعيداً عن التوحيد، وأخذتها بعيداً عن عبادة الله الحق، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

- النداء الأول في كل رسالة: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره):

هذه العبادة لله وحده، هي العهد القديم الذي أخذه الله على بني الإنسان، وسجّله بقلم القدرة في فطرحهم البشرية، وغرسه في طبائعهم الأصيلة، منذ وضع في رؤوسهم عقولاً تعي، وفي صدورهم قلوباً تخفق، وفي الكون حولهم آيات تهدي: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ • وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ - ٦١].

هذا العهد بين الله وعباده هو الذي صوّره القرآن في روعة وبلاغة حين قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنَىءِ آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ • أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَهِيَكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

فلا عجب أن يكون المقصد الأعظم من بعثة النبيين، وإرسال المرسلين، وإنزال الكتب المقدسة، هو تذكير الناس بهذا العهد القديم، وإزالة ما تراكم على معدن الفطرة من غبار الغفلة، أو الوثنية، أو التقليد، ولا عجب أن يكون نداء الرسل الأول لأقوامهم: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

بهذا دعا قومه نوحٌ وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، وكل

رسول بعث إلى قوم مكذبين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى بعد أن ذكر قصص طائفة كبيرة من الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢].

- الجميع مأمورون بالعبادة:

وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، أي: الموت. كما قال تعالى على لسان المجرمين أهل سقر: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦-٤٧]، وهو الموت. فالتكليف بالعبادة لازم له حتى يلحق بربه، لم تسقط عنه بسمو الروح، ولا بالاتصال القوي بالله، وهكذا ظل حتى في مرض موته عابداً لله.

وقال تعالى في شأن المسيح عيسى ابن مريم، الذي رفعه قومه إلى مرتبة الألوهية: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾. فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣].

هل للدين مكان في عصر العلم؟



ينفر بعض الناس من اتّباع النهج الإسلامي، لا لشيء، إلا لأنه نهج يعتمد على الدين، ويستند إلى الوحي، وهذا وحده كافٍ عندهم للإعراض عن هذا النهج، فنحن في عصر العلم، لا في عصر الدين، فقد أدّى الدين - في رأيهم - دوره، ولم يعد له في الحياة الحديثة مكان!.

• حجة من يرفض الدين:

وَحُجَّةٌ هَؤُلَاءِ:

أولاً: أن الحضارة لا قيام لها إلا بالعلم، والدين يعادي العلم، والغرب الحديث لم يبلغ ما بلغ من الرقي، إلا حينما رفض منطق الدين، وآمن بمنطق العلم.

فإذا أردنا أن نجاري الغرب في مدنيته وحضارته، فعلينا أن نسير سيره، ونخلع ربقة الدين من أعناقنا، وإلا بقينا في نطاق التخلف والانحطاط.

ثانياً: التسليم بما ذهب إليه فيلسوف المدرسة الوضعية الفرنسية (أوجست كونت) من القول بقانون الأدوار الثلاثة، التي بدأت بالدين، وثنت بالفلسفة، وانتهت بالعلم، وهو غاية المطاف.

ثالثاً: تريد ما قاله (ماركس): إن الدين أفيون الشعوب. فيتعيّن منعه ومقاومته، حتى يتخلص الشعب من الخنوع والتسليم والإذعان، وينهض للمطالبة بحقوقه، ويثور على الأوضاع الظالمة الفاسدة.

• الحضارة والعلم:

أما أن الحضارة لا قيام لها إلا بالعلم، فهذا صحيح. وأما الربط بين قبول منطق العلم ورفض منطق الدين، واعتقاد أن الدين يعادي العلم، فهذا غير صحيح.

الدين الذي عاды العلم ووقف في وجهه، وحكم على رجاله بالموت، أو بالحرمان من ملكوت السماء؛ هو دين الكنيسة الغربية، التي حجرت في بعض تاريخها على الفكر، وعارضت العلم، وتبنّت نظريات علمية قديمة، أضفت عليها القداسة والعصمة، وحاربت كل من انتهى بحثه إلى مخالفتها، ورمته بالزندقة والإلحاد.

هذا موقف دين الكنيسة، ولا أقول دين المسيح.

• موقف الإسلام من العلم:

أما الإسلام، فهو دين قام منذ بزغ فجره على احترام العقل، والدعوة إلى النظر والتفكر في الأنفس والآفاق، في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، وخصوصاً أن الله سخر للإنسان ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، كما قام على رفض كل دعوى بغير برهان، والإنكار على التبعية والتقليد، وعلى اتباع الظنون والأهواء، وتجريم السحر والكهانة والعرافة، وما يلحق بها من الأباطيل.

وإلى جوار ذلك أشاد بالعلم والعلماء، وفضل درجة العلم على درجة العبادة، ورحب بكل علم نافع دينيًا كان أو دنيويًا، بل فرضه فرض كفاية على الأمة بقدر ما يحتاج إليه المسلمون والناس، وأخذ الحكمة من أي وعاء خرجت، وبهذه المبادئ والتوجيهات الرائدة، صنع الإسلام (المناخ) النفسي والعقلي والاجتماعي لازدهار العلم، وقيام حياة علمية مضيئة الجنبات.

و(العقلانية) في الإسلام أمر اعترف به كل منصف، ولو كان من خصوم الإسلام أنفسهم.

فهذا الكاتب اليهودي الفرنسي الماركسي (مكسيم رودنسون) يقول في حديثه عن (العقيدة القرآنية): «القرآن كتاب مقدس تحتل فيه العقلانية مكانًا جد كبير، فالله لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين، بل إن أكثر ما يلفت النظر هو: أن الوحي نفسه - هذه الظاهرة الأقل اتسامًا بالعقلانية في أي دين، الوحي الذي أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور، وعلى خاتمهم محمد - يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان، فهو في مناسبات عديدة، يكرر لنا أن الرسل قد جاؤوا بـ(البينات)، وهو لا يألو يتحدّى معارضيه أن يأتوا بوحي مثله.

والقرآن ما ينفك يقدم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية؛ فإن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتوالد الحيوان، ودوران الكواكب والأفلاك، وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية، تنوعًا رائع التطابق مع حاجات البشر: ﴿لَا يَنْتَ لِأُولَى الْأَلْبَبِ﴾^(١) [آل عمران: ١٩٠].

(١) كان الأولى الاستشهاد بآية البقرة رقم (١٦٤): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّكَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَنْتَ =

وفعل (عقل) - بمعنى: (رَبَطَ الأفكار بعضها ببعض.. حاكم.. فهم البرهان العقلي) - يتكرر في القرآن حوالي خمسين مرة، ويتكرر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستنكاري، وكأنه لازمة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]؟! والكفار أولئك الذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد، يوصفون بأنهم: ﴿قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨]؛ لأنهم قاصرون عن أي جهد عقلي يهز تقاليدهم الموروثة، وهم بهذا كالعجماوات والأنعام، بل أكثر عجمة.. ولذلك يكره الله هؤلاء الناس الذين لا يريدون أن يعيدوا النظر في أسس تفكيرهم.

ولئن كان - أي: الله سبحانه - يرسل الآيات (الدالة) على وجوده وإرادته، وأهمها الآيات المنزلة على نبيه محمد، فلنكي يفهمها الناس، ويجعلوا منها أساساً لتفكيرهم، نرى الله يقدم البيّنة الفاصلة، ثم يختتم البرهان بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] ^(١).

ويستمر الكاتب في بيان عقلانية الإسلام مقارنة بما جاء في العهدين القديم والجديد لليهود والمسيحيين، إلى أن يقول: «في مقابلة هذا تبدو (العقلانية القرآنية) ضلّبة كأنها الصّخر» ^(٢).

ومثل هذا المناخ العقلي الذي صنّعه آيات القرآن - كما اعترف به المفكر الماركسي وغيره - يشكل أخصب بيئة لإنتاج علمي مثمر، قائم على استخدام أقصى الطاقات والمواهب البشرية.

= لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ فهي المطابقة لكلام المؤلف هنا، ويبدو من كلام المؤلف أنه تتبع مادة (عقل) فقط في القرآن، ولو تتبع كلمات أخرى في الموضوع مثل: (نظر)، و(تفكر)، و(فقه)، و(علم)، و(حكمة)، و(برهان)، و(لب)، و(ججر) ونحوها لخرج بشيء كثير وكثير جداً.

(١) الإسلام والرأسمالية، ترجمة نزيه الحكيم، ص ١٣٤ وما بعدها، نشر دار الطليعة - بيروت.

(٢) الإسلام والرأسمالية، فصل (العقيدة القرآنية)، ص ١٣٤.

• إضافات مهمة لموقف الإسلام من العلم:

ولكننا نضيف إلى ما ذكرنا أمورًا مهمة في موقف الإسلام من العلم، منها:

١ - إشارة القرآن إلى استخدام (التخطيط) في السياسة الاقتصادية والتمويلية للدولة، كما هو واضح في (الخطة الخمس عشرية) من قصة يوسف الصديق عليه السلام في القرآن الكريم، وكيف كانت هذه الخطة الحكيمة سببًا في إنقاذ مصر وما حولها من الأقطار من مجاعة مهلكة؛ فليس التخطيط - إذن - منافيًا لعقيدة الإيمان بالقدر، كما يفهم بعض السطحيين^(١).

٢ - استخدام النبي ﷺ لأسلوب (الإحصاء) منذ عهد مبكر من حياة المسلمين في المدينة، فقد روى البخاري: أنه ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة، أمر بعض أصحابه أن يُحصوا له عدد الذين يلفظون بالإسلام، فأحصوهم، فكان عددهم خمسمئة وألفًا^(٢).

وبهذا نعلم أن (الإحصاء) أسلوب إسلامي أصيل، وليس سلعة مستوردة من الغرب. ومن الأصيل في الثقافة الدينية الإسلامية: أن من أسماء الله تعالى (المحصى) الذي أحصى كل شيء عددًا.

٣ - إقراره صلوات الله وسلامه عليه لمبدأ (التجربة) في الأمور الدنيوية، والأخذ بنتائجها، وإن كانت مخالفة لرأيه ﷺ، كما وقع ذلك في حادثة تأبير النخل، وقوله لهم في ذلك: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(٣).

(١) انظر: الإسلام والمنهج العلمي، للدكتور عبد العزيز كامل، ص ١٧ - ٢٢.

(٢) رواه البخاري في الجهاد (٣٠٦٠)، عن أبي حذيفة.

(٣) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣)، عن عائشة.

٤ - تشجيع الاقتباس، وأخذ النافع من الغير، في الأمور (التقنية) والدينية، التي لا تتعلق بالعقائد والقيَم والأداب والشرائع ونحوها، مما تمتاز به المجتمعات (الأيدولوجية) بعضها عن بعض، ولهذا أخذ الرسول ﷺ برأي سلمان في حفر الخندق حول المدينة، مع أنه من أساليب الفُرس. وصنع له نجار رومي منبرًا يخطب عليه، وقد رُوي عنه ﷺ قوله: «الحكمة ضالة المؤمن، أُنِّي وجدها فهو أحق بها»^(١).

٥ - إشادة القرآن الكريم بقيمة (الصناعة) ودورها في الحياة، حتى إن رُسل الله والمصطفين الأخيار من عباده؛ كانوا أصحاب حِرَف وصناعات، أتقنوها وتفوقوا فيها؛ فنوح شيخ المرسلين يصنع السفن، وإبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل بنَّاءان يرفعان القواعد من البيت (الكعبة)، وداود يصنع الدُّروع، ويلين له الحديد، وسليمان يُسِيل الله له عَيْنَ القِطْرِ، وَيُسَخِّرُ له الجن، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ [سبأ: ١٣]، وذو القرنين يقيم السدَّ العظيم من الحديد والنحاس المُذاب^(٢).

وهذا كله يبيِّن لنا طبيعة (المناخ) الذي هيَّأه الإسلام لظهور (المنهج العلمي) السليم، الذي لم يملك باحثو الغرب أن ينكروه، بل اقتبسوه واستفادوا منه.

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩)، عن أبي هريرة، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٠٦). ولكن معناه صحيح بالإجماع.

(٢) انظر في تفصيل ذلك: فصل (الرسول والعلم التجريبي) من كتابنا: الرسول والعلم، نشر مؤسسة الرسالة، ودار الصحوة.

يقول العلامة (رينيه ميليه): «لقد جاء المسلمون بمبدأ في البحث جديد؛ مبدأ يتفرّع من الدين نفسه، هو مبدأ التأمل والبحث، وقد مالوا إلى العلوم وبرعوا فيها، وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء، وقد وُجد فيهم كبار الأطباء»^(١).

ويقول الدكتور (فرنثو رونثال): «إن أعظم نشاط فكري قام به العرب، يبدو لنا جليًا في حقل المعرفة التجريبية، ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطًا واجتهادًا عجيبيين، حين يلاحظون ويمحصون، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلّموه من التجربة».

ويقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي الشهير (غوستاف لوبون): «إن العرب هم الذين علّموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين»^(٢).

• أثر العلم الإسلامي في الحضارة:

ولا عجب أن قامت في هذا المناخ حضارة سامقة الذّرا، جمعت بين العلم والإيمان، ومزجت بين الدين والدنيا، حتى إن أوربة لم تُقِم نهضتها العلمية إلا حين مسّها قبس من نور هذه الحضارة، أخرجها من سجن التقليد، والدوران حول القديم، من القياس الأرسطي، والمنطق الصوري، إلى باحة الكشف والاستقراء والملاحظة والتجربة، وكل ذلك من أثر المنهج العلمي الإسلامي الذي اكتشفه المسلمون، متأثرين بالإسلام قبل أي شيء آخر.

(١) من خطبة لموسيو (رينيه ميليه) ألقاها في مؤتمر إفريقية الشمالية بباريس، نقلًا عن مجلة المنار، لصاحبها العلامة محمد رشيد رضا (١١/٨١٨).

(٢) نقلًا عن: (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية)، للأستاذ الإمام محمد عبده، ص ٨٦، نشر دار المنار، الطبعة الثامنة، ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م.

يقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسي الدكتور (غوستاف لوبون) في فصل له عن (مناهج العرب العلمية) من كتابه (حضارة العرب): «ليست المكتبات والمختبرات والآلات غير وسائل للدرس والبحث، وتكون قيمتها في معرفة الاستفادة منها، وقد يستطيع المرء أن يكون مَطْلَعًا على علوم الآخرين، وقد يبقى عاجزًا عن التفكير وابتداع أي شيء مع ذلك، فيظل تلميذًا غير قادر على الارتقاء إلى درجة أستاذ، وسيبدو من الاكتشافات التي نذكرها في الفصول الآتية مقدار ما اكتشفه العرب بما لديهم من وسائل الدرس.

والآن أقصر على ذكر المبادئ الأربعة التي وجَّهت أبحاثهم:

لم يلبث العرب بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان: أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب، وعلى ما يبدو من ابتدال هذه الحقيقة جدَّ علماء القرون الوسطى في أوربة ألف سنة قبل أن يعلموها.

ويُعزَى إلى (بيكون) - على العموم - أنه أول من أقام التجربة والترصد اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة مقام الأستاذ، ولكن يجب أن نعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم.

وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب، ولا سيما (هنبولد)، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم، قال: «إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريبًا».

وقال (مسيو سيدثو): «إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لأعمالها، وكان استخراج

المجهول من المعلوم، والتدقيق في الحوادث تدقيقًا مؤدّيًا إلى استنباط العلل من المعلولات، وعدم التسليم بما لا يثبت بغير تجربة؛ مبادئ قال بها أساتذة من العرب، وكان العرب في القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهاج المُجدي، الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات».

قام منهاج العرب على التجربة والرصد، وسارت أوربة في القرون الوسطى على درس الكتب، والاقتصار على تكرار رأي المعلم، والفرق بين المنهجين أساسى، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق. واختبر العرب الأمور وجربوها، وكانوا أول مَنْ أدرك أهمية هذا المنهاج في العالم، وظلوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلاً، قال (دولنبر) في كتاب (تاريخ علم الفلك): «تَعُدُّ راصِدِينَ أو ثلاثة بين الأغارقة، وتَعُدُّ عددًا كبيرًا من الرُّصَاد بين العرب، وأما في الكيمياء فلا تجد مجرّبًا يونانيًا مع أن المجرّبين من العرب فيها يُعَدُّون بالمئات».

ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلّفاتهم دقة وإبداعًا، لا يُنتظر مثلهما من رجل تعود درس الحوادث في الكتب، ولم يبتعد العرب عن الإبداع، إلا في الفلسفة التي كان يتعذّر قيامها على التجربة.

ونشأ عن منهاج العرب التجريبي وصولهم إلى اكتشافات مهمة، وسرى من مباحثنا في أعمال العرب العلمية: أنهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حقّقه الأغارقة في زمن أطول من ذلك كثيرًا، وكان تراث اليونان العلمي قد انتقل إلى البيزنطيين، الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل، ولمّا آل إلى العرب حوّلوه إلى غير ما كان عليه، فتلّقاه ورثتهم مخلوقًا خلقًا آخر.

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها كذلك بما أقاموا من الجامعات، وما ألفوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوروبة من هذه الناحية، وسترى في الفصل الذي ندرس فيه هذا التأثير: أن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية مدة قرون، وأننا لم نطلع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نُقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب، إلا في الأزمنة الحاضرة»^(١).

ومما لا يُنازع فيه أحد: أن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم اهتمام كبير بالجانب العلمي، لغلبة الجانب الأدبي والاهتمام بفنون القول عليهم.

فهذا الاتجاه العلمي الذي نوّه به مؤرخو الحضارة الإسلامية العربية إنما هو من صنع الإسلام، الذي حثّهم على البحث والتأمل في آيات الله في الأنفس والآفاق، والنظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، وهياً - قبل ذلك - المناخ النفسي والعقلي الذي ازدهر فيه العلم هذا الازدهار^(٢).

فإذا كان مؤرخو العلم الأوروبيون قد أنكروا فضل العرب الفلسفي، فإنهم لم يستطيعوا إنكار فضلهم العلمي، وإن كان الكثيرون منهم يعترفون به على أساس أنه نتيجة لعلوم اليونان، وليس هنا مجال مناقشة هؤلاء.

(١) حضارة العرب، ص ٤٢٣ - ٤٣٧، الطبعة الأولى.

(٢) انظر: فصل (الرسول والعلم التجريبي) من كتابنا: الرسول والعلم، ص ٣٧ - ٦٠، طبع مؤسسة الرسالة - بيروت، ودار الصحوة - القاهرة. وكتابنا: العقل والعلم في القرآن، طبع مكتبة وهبة، ومؤسسة الرسالة.

ونحن نعلم أن أفكار (الحسن بن الهيثم) في علم (البصريات) عاشت في أوربة إلى زمان ليس ببعيد عَنَّا، كما نعلم أن أبحاث (الطوسي) في (الرياضيات)، وتناوله لهندسة (إقليدس) ومعادلاته، بقيت زمنًا طويلًا يتناولها علماء أوربة، وكذلك كتاب (ابن سينا) الطبي (القانون)، بقي المرجع الأساسي لكليات الطب في أوربة حتى القرن السابع عشر.

وما زالت عناية الباحثين بالعلم العربي الإسلامي قائمة على أشدها، مهتمين ببيان مكانته في التراث العلمي العالمي، وممن وجَّه الأنظار إلى قيمة هذا العلم مؤرخ تاريخ العلم الإنساني، الأستاذ (جورج سارتون). وقد لفت الأستاذ الدكتور علي سامي النشار الأنظار إلى أعمال هذا الباحث الكبير، وعلى الأخص في كتابه الممتاز (تاريخ العلم).

فقد عرض في مواضع متعددة من هذا الكتاب لأهمية العلم العربي (الإسلامي) في العصور الوسطى.. وقرر: أن أعظم النتائج العلمية مدة أربعة قرون إنما كانت صادرة عن العبقريَّة الإسلامية.

كما بيَّن أيضًا: أن معظم الأبحاث العلمية الممتازة - خلال هذه القرون الأربعة - إنما تمت في لغة العلم الكبرى حينئذ وهي اللُّغة العربية^(١).

ويذكر الدكتور النشار في كتابه القيم (مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي) نتيجتين هامتين لبحثه كله:

(١) انظر: مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، للدكتور علي سامي النشار، ص ٣٥٣ - ٣٥٩، كما نبّه الدكتور النشار على كتاب لسارتون هو: العلم القديم والمدنية الحديثة، ترجمة الدكتور عبد الحميد صبرة، ص ٧٨، ٧٩، ١٢٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ومواضع أخرى متعددة.

الأولى: أن المفكرين المسلمين الحقيقيين، الممثلين لروح الإسلام، لم يقبلوا المنطق الأرسطي الصوري؛ لأنه يقوم على المنهج القياسي، ولا يعترف بالمنهج الاستقرائي أو التجريبي.

والنتيجة الثانية: أن المسلمين قد وضعوا هذا المنهج العلمي بجميع عناصره، وكانت إسبانيا هي المعبر الذي انتقل خلاله من العالم الإسلامي إلى أوربة^(١).

وينقل مفكر الهند الكبير الدكتور محمد إقبال رَحِمَهُ اللهُ عَنْ (دوهرنج) قوله: «إن آراء (روجر بيكون) عن العلم أصدق وأوضح من آراء سَلَفِهِ. ومن أين استمد (روجر بيكون) دراسته العلمية؟ من الجامعات الإسلامية في الأندلس».

ويقرر الأستاذ (بريفولت) في كتابه (بناء الإنسانية): أن (روجر بيكون) درس العلم العربي دراسة عميقة، وأنه لا يُنسب له ولا لسميه الآخر (فرنسيس بيكون) أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوربة. ولم يكن (روجر بيكون) في الحقيقة إلا واحدًا من رُسل العلم، والمنهج الإسلامي إلى أوربة المسيحية.

ولم يكفَّ (روجر بيكون) عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة الحقّة لمعاصريه.

ثم يذكر أنه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسي عليها، ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية في العلم الأوربي هو تأثيرها في (العلم الطبيعي) و(الروح العلمية)؛ وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث، والمصدران الساميان لازدهاره.

(١) المصدر السابق، ص ٣٨٢.

ويقرر (بريفولت) في حسم وإصرار: «إن ما يدين به علّمنا لعلم العرب ليس هو ما قدّموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة، إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا؛ إنه يدين لها بوجوده..

إن ما ندعوه بالعلم ظهر في أوربة نتيجة لروح جديدة في البحث، ولطرق جديدة في الاستقصاء.. طرق التجربة والملاحظة والقياس، ولتطور الرياضيات في صورة لم يعرفها اليونان.

وهذه الروح وتلك المناهج إنما أدخلها العرب إلى العالم الأوربي»^(١).

• الإسلام يوحد بين الدين والعلم:

وبهذا يتضح لنا أن لا مجال في الإسلام لدعوى التعارض أو العداوة بين الدين والعلم، فالدين في الإسلام علم، والعلم فيه دين، كما تشهد بذلك أصول الإسلام وتاريخه جميعًا.

الدين في الإسلام علم؛ لأنه لا يعتمد على الوجدان وحده، بل يقوم على النظر والتفكير ورفض التقليد الأعمى، والاعتماد على البرهان اليقيني لا على الظن واتباع الهوى.

والعلم في الإسلام دين؛ لأن طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهو فريضة عينية أو كفائية، تبعًا لحاجة الفرد أو حاجة المجتمع. والاشتغال بالعلم النافع - دينيًا كان أم دنيويًا - عبادة وجهاد في سبيل الله. وهذه حقيقة شهد بها كثير من الباحثين والمؤرخين الغربيين.

ولا بأس أن نذكر هنا بعض هذه الشهادات تأكيدًا وتثبيتًا لمن تهمهم أقوال الغربيين.

(١) مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ص ٣٨٢ - ٣٨٤.

يقول العلامة (هورتن): «في الإسلام وحده تجد اتحاد الدين والعلم، فهو الدين الوحيد الذي يوحد بينهما، فتجد فيه الدين ماثلاً متمكناً في دائرة العلم، وترى وجهة الفلسفة ووجهة العلم متعانقتين، فهما واحدة لا اثنتان»^(١).

ويقول (إتيان دينيه): «إن العقيدة الإسلامية لا تقف عقبة في سبيل الفكر، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر الفكر، ولا تقتضي حرية الفكر أن يكون المرء منكراً لله. لقد رفع (محمد) قَدْر العلم إلى أعظم الدرجات، وجعله من أول واجبات المسلم. ويقول: «يوزن يوم القيامة مِداد العلماء بدماء الشهداء»^(٢)، ورفع فضل العلم على فضل العبادة»^(٣).

• أين نشأت مشكلة التعارض بين الدين والعلم؟

وإذا كان هذا موقف الإسلام من العلم، فمن أين نشأت مشكلة التعارض بين العلم والدين؟.

الحقيقة كما يقول الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود: «إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم إنما نشأت في أوربة، بعيدة عن

(١) انظر: كتاب (استعداد الإسلام لقبول الثقافة الروحية)، للمستشرق الألماني (هورتن)، ص ٩، نقلاً عن مجلة المنار (١٤٠/٣٠) من مقال (شهادات علماء الغرب المنصفين) للسيد محمد رشيد رضا.

(٢) رواه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) (١٥٣)، وضعف إسناده العراقي في تخريج إحياء علوم الدين، ص ١٣، عن أبي الدرداء. ونقول: الغالب أن يكون هذا من كلام أبي الدرداء، وليس مرفوعاً إلى النبي الكريم.

(٣) كحديث: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٥) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣)، عن أبي أمامة.

الجو الإسلامي. إنها تصوّر نزاعًا في بيئة بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية، التي حثّت الإنسانية على التعليم والتعلم، والتي نشأ المنهج العلمي - الذي يعتبرونه حديثًا - بين ربوعها، قديمًا بقدمها، والتي أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة، لا تزال يُكشف كل يوم الكثير من أنحائها العميقة.

وما من شك في أن الحضارة الإسلامية هي - كما يقول الأستاذ (بريفولت) - التي قدّمت إلى الحضارة الغربية الحديثة المنهج العلمي وأصول العلم نفسه، أي: الحقائق المكتشفة في المجالات المختلفة. والأمر العام الذي نريد أن ننبه عليه، هو: أن مسألة التعارض بين الدين والعلم إنما هي مسألة وهمية إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر.

ذلك أن العلم وممثليه الحقيقيين يعترفون في صراحة لا لبس فيها، وفي وضوح لا خفاء فيه بأن دائرة أبحاثهم، إنما هي المادة، وإنما هي المُحَسَّس، وأنهم يعتمدون في ذلك على التجربة وعلى الملاحظة، إنهم يعتمدون على الاستقراء على وجه العموم»^(١).

* * *

(١) من بحث عن (شخصية المسلم) ألقاه في المؤتمر الرابع لـ (مجمع البحوث الإسلامية).

الطب النفسي في موكب الإيمان

كل العلوم قد أسهمت بقدر ما في إقامة الأدلة على وجود الله تعالى، فمنهم من أطال، ومنهم من قصر، خصوصًا علم النفس.

على أن كثيرًا من الأطباء النفسيين قد ثبت لديهم بالتجارب المتكررة أن الإيمان بالله والآخرة من أعظم الأدوية الفعّالة في القضاء على الأمراض النفسية، وكثير منهم استعان بالدين في علاج مرضاهم، فنجحوا أعظم نجاح، وسجّلوا ذلك في بحوث ومقالات وكتب نشروها على الناس.

ولعل أبرز مثل يحضرني الآن هو الطبيب النفسي الأمريكي الشهير الدكتور (هنري لنك) الذي كفر يومًا بالدين الذي ورثه، وخلع معتقداته القديمة كما يخلع المرء نعله، وعاش عدة سنوات ملحدًا، لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فعل ذلك باسم العلم، الذي رآه في ذلك الوقت يتعارض مع الدين، أو على الأقل: لا يثبت ولا يؤيده. فالعلم - حسب قوله - لا يستطيع أن يثبت وجود الله، كما لا يستطيع أن يثبت عدم وجوده، وبناء على ذلك لا يسع اللبيب إلا أن يقول: (أنا لا أعرف) أي: يكون شاكرًا أو ملحدًا.

هذا الرجل، الذي جرفه العلم بعيدًا عن الدين، عاد عن طريق العلم مرة أخرى إلى الدين، وسجّل ذلك في كتاب نشره على الناس، وطبع إلى ما قبل سنوات في أمريكا (٤٧) مرة^(١)، وقد سمى كتابه (العودة إلى الإيمان).

(١) كان ذلك أوائل الخمسينيات من القرن العشرين.

ولنستمع إليه نفسه يحدثنا عن أسباب عودته وظروفها وكيفيتها فيقول: «وهأنذا أسجل أن عودتي إلى حظيرة الإيمان لم تكن وليدة الضائقة المالية التي اكتسحت العالم وقتاً ما، ولو أنني أعترف مع ذلك بأن تلك الفترة قد ساعدت على نضوج بعض الحقائق النافعة لي، وما كان تقدم سني أو اقترابي من الشيخوخة - هذان الشبحان اللذان غالباً ما يؤثران على تفكير المرء - هما السبب في عودتي إلى حظيرة الإيمان، فإني ما زلت في مستهل الخامسة والأربعين، وهي سن تعتبر مبكرة نوعاً ما، وما زلت بحمد الله موفور الصحة، قوي البنية، قادراً على الانحناء عشر مرات متواليات، وسباحة ميل كامل، والتهام كل ما أشتهي من طعام، دون خشية أية عواقب.

فعودتي إلى الإيمان لا ترجع إلى تدهور صحتي، ولا إلى ما عساه أن أكون قاسيته من الآلام التي تؤثر على عقلية المريض، فتجرفه في تيار التمني للتخلص من هذه الحياة، والإخلاد لحياة أخرى، كلها راحة واطمئنان.

كما أنني أقرر أنها لم تأت في أعقاب مصيبة أو كارثة من كوارث الحياة ومشاكلها، بل بالعكس، جاءت بعد أن قضيت ستة عشر عاماً في حياة زوجية هائلة، فأنا رجل محظوظ، لي ثلاثة أطفال هم مصدر سعادتي وغبطتي، وأحرزت من النجاح أكثر مما كنت أصبو إليه، أما إيرادي، فيربو على حاجتي ومطالب أسرتي.

ومن هنا ترى أن هداي لم تصطحبه أية حبكة روائية، أو إثارة ما لعواطفني، فلم أمر بتجربة قاسية، ولم يحرك إحساسي كارثة، كما لم يُبهر بصري اكتشاف جديد قد يحدث هذا التبدل الذي أسجله الآن.

لقد أتاني الهدى وئيدًا، حتى إنني لم أتبينه في نفسي خلال مراحل الأولى، وما كان مرجع هذا التبدل، إلا تلك التجارب المتواصلة التي صادفتني في أثناء ممارستي لمهنتي كطبيب نفسي^(١).

فهذا الرجل الطبيب العالم يعلن في ثقة ووضوح: أنه لم يعد إلى حظيرة المؤمنين نتيجة لتأثر وقتي، أو انفعال عارض، ولم يعد إلى الإيمان بناء على نظريات نفسية اعتنقها، أو آراء فلسفية تبناها، فإن النظريات والآراء قابلة للصدق والكذب، ومحملة للصواب والخطأ، إنما عاد الرجل إلى الإيمان بناء على تجارب مارسها بنفسه، وعلى ملاحظات متكررة شاهدها بعيني رأسه، وهذه التجارب والملاحظات هي أساس علم النفس التجريبي، الذي يدرس الظواهر النفسية دراسة تقوم على القياس والاختبار والإحصاء والأرقام، والتي بها أصبحت الدراسات النفسية (علمًا) ولم تعد (فلسفة).

وهاهو يوضح هذا المعنى ويؤكدده، فيقول: «إن علم النفس الحديث القائم على أساس الرياضيات والأرقام، والذي يطبق على البشر لا على الورق، هو الذي قلب آرائني ومبادئ رأسا على عقب، دون أن أشعر بالتطور الذي حلّ بي من مدة طويلة.

وهنا لا يجوز الخلط بين هذا العلم وبين التحليل النفسي، الذي أدّى إلى ظهور نظريات تأملية، لا يمكن تمامًا الجزم بصحتها كلها، كالتعبير عن الذات والقمع، والأحلام والعقل الباطن، والليبدو^(٢) وعقدة النقص، والتربية التقدمية... إلخ.

(١) العودة إلى الإيمان، ص ١٤ - ١٥.

(٢) الليبدو: هي الطاقة الحيوية في الإنسان، قصد بها (فرويد) الحرمان الجنسي، أو الجانب العقلي للغريزة الجنسية، ولكن (يونج) توسّع في معنى التعبير، وأطلقه بصفة عامة على الحيوية بأسرها (المترجم).

وما أقل ما يعرفه الناس عن علم النفس العلمي الذي بلغت دقته الدرجة التي وصلت إليها الكيمياء والطبيعة منذ قرن من الزمان، وبرغم أنهم سمعوا عن اختبار الذكاء أو مقياس الذكاء، إلا أن القليلين منهم هم الذين يدركون أن هناك أكثر من (١٠٠٠٠) اختبار نفسي أجراها رجال علم النفس، وأن معظم هذه الاختبارات تستخدم الآن في الحياة العامة، والقليلون أيضًا يعلمون أن (مؤسسة روكفلر) قد وهبت جماعة من علماء النفس نصف مليون دولار، لاكتشاف اختبارات التعاون المستخدمة الآن بمعظم المدارس.

وقد أمضى أساتذة علم النفس في جامعة (مينيسوتا) خمس سنوات في بحث متواصل، حتى اهتموا إلى استنباط ثلاثة اختبارات لقياس مدى كفاية المرء الآلية، واستعداده الطبيعي لاستخدام الأجهزة الآلية، أنفقت فيها مئة ألف دولار، تبرع بها مجمع الأبحاث الوطني وغيره من المؤسسات.

ويكاد الجمهور الذي ينفق ملايين الدولارات على دراسة الموسيقى لا يعرف شيئًا كذلك عن دقة اختبار (سيشور) لاكتشاف المواهب الموسيقية الفطرية في الإنسان، وقد وضعه بعد بحث مجهد دام خمسة وعشرين عامًا، بمعاونة عدد من رجال علم النفس المساعدين.

وقليلون أيضًا هم الذين سمعوا عن الجهاد العنيف الذي بذله أمثال: رودرث وثيرستون، وألبروت وولز وروث، وبرنرويتز، وغيرهم في مجال الشخصية وحدها.

وهكذا ظهر تحسن ملحوظ في القدرة على تفهم الشخصية، وترقيتها والتقدم بها، بواسطة الاختبارات المتقدمة الذكر، واستخدامها في علاج

المرضى بالعيادات الطبية، فقد أجرى اختبار قياس الشخصية وحده على حوالي نصف مليون نفس عام (١٩٣٥م) في عيادات الولايات المتحدة ومدارسها.

هذا الفرع من علم النفس هو الذي أدّت مكتشفاته إلى تبديل معتقداتي الدينية، وهي تختلف عن تلك النظريات الجذابة الشائعة بين الناس، كما أنني قد قدّمت إلى هذا النوع من علم النفس العلمي الكثير من المعونة، فحازت القبول، وأما مكتشفاتي التي سيرد ذكرها فيما بعد، فلم تكن ممكنة التحقيق بدون تلك التجارب العلمية التي قام بها غيري من العلماء النفسيين، وأما كون النتائج المستخلصة من هذه الدراسات تؤيد - بل تطابق - بعض المعتقدات الدينية الأساسية، فهذا ما سيلمسه الجميع حتمًا بمرور الزمن.

وقد طبقت مكتشفات علم النفس تطبيقًا واسع النطاق على معظم المشكلات الإنسانية، فقد أجرت مصلحة تشغيل المتعطلين بمدينة نيويورك اختبارًا نفسيًا على (١٥٣٢١) نفسًا من الرجال والنساء المتعطلين، في فترة لا تتجاوز ستة عشر شهرًا، وفي ضوء هذه الاختبارات أمكن توجيه كل منهم إلى المهنة المناسبة والتدريب المطلوب له حتى يصير لائقًا لهذه المهنة.

وفي كثير من الأحيان كانت النصيحة تقدّم استنادًا إلى المشكلات والعقد المكتشفة في شخصية كل منهم، والتي تكون عادة السبب الأساسي في تعطّلهم، وقد تكلفت هذه العملية أكثر من مئتي ألف دولار، تبرّعت بمعظمها (مؤسسة كارنيجي)، وجمعية مساعدة العمال العاطلين بمدينة نيويورك، ولما كنتُ قد عُيّنت مستشارًا خاصًا في هذه العملية،

ونيط بي وضع الخطط ومراقبة الدراسات الإحصائية المستخلصة لعشرة آلاف نفس، ممن جرى عليهم الاختبار، وقد أجريت عليهم ما قدره (٧٣٢٢٦) اختبارًا نفسيًا، وسجلت تقريرًا شخصيًا شاملًا لكل فرد منهم. وفي هذا الوقت بالذات بدأت إدراكي لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان، ووجدت من نفسي استعدادًا لمضاهاة تجاربي السابقة على مرضاي، بالنتائج الباهرة التي أتت بها تلك الاختبارات العظيمة، التي توليت الإشراف عليها، وقد استخلصنا من هذه الاختبارات نتيجة هامة، ولو أنها لم تنشر في التقرير النهائي، وهذه النتيجة هي: أن كل من يعتنق دينًا أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له أو لا يزاوُل أية عبادة.

وعلى ذلك لم تكن رجعتي إلى الدين رجعة الضال الذي اهتدى إلى دين صائب، أعني أن هذه الرجعة لم تصاحب شعورًا متوقّدًا، أو نعمة عاطفية، لكنها كانت رجعة عن طريق العقل فحسب لسوء الحظ! ولا أظن أن كافة المتدينين يقرّون هذه الحقيقة، حتى أنا نفسي لا أعتقد أنها الطريقة المثلى، ففكرتي عن الدين تتضمن بضع معتقدات، لا تؤيدها مذاهب دينية معينة، وتنبذ بعض الآراء التي تراها مذاهب معينة جوهريّة. إذن فما هو الدين؟.

الدين: هو الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة؛ هذه القوة هي قوة الله، مدبّر الكون، خالق السماوات، وهو الاقتناع بالدستور الخُلقي الإلهي الذي سنّه الله في كتبه المتعاقبة، واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز تغترف منه الحقائق الدينية، وهي أسمى في مرماها من العلوم كلها مجتمعة»^(١).

(١) العودة إلى الإيمان، ص ٢٣ - ٢٦.

والحق أن هذا الرجل - ككثيرين غيره - حين كفر وألحد، لم يكفر بدين الله الحق، وإنما كفر بالتحريفات التي شوّهت الدين ومسخته، إنما كفر بدين الكنيسة، بما أضيف إليه، وما ابتدع فيه، وحين آمن وعاد إلى الدين، لم يعد إلى الدين الذي أنكره من قبل، بل عاد إلى دين ترضى عنه فطرته وعقله، وإن لم ترض عنه مذاهب كنسية معينة، وهو ينبذ معتقدات تراها بعض المذاهب جوهريّة. ولو أتيح للرجل أن يعرف الإسلام على بصيرة؛ لأيقن أن الدين الذي اهتدى إليه، وأعلن عودته إلى حظيرته، إنما هو في الواقع دين الإسلام، دين الفطرة والعقل، دين الحياة والقوة، فهذا الدين هو سلاح الأقوياء، وليس ملجأ الضعفاء، كما يقول الدكتور في فقرة من كتابه:

«لقد أدّت دراستي العميقة للأفراد إلى مشاهدتي ذلك القبس المضيء من نور الهداية، وسواء أكان أمل الإنسان هو الحصول على الوظيفة اللائقة، أو الأمن الاقتصادي، أو الاطمئنان الاجتماعي، أو السعادة الزوجية، فلن يُعَمَّ الرخاء، إلا إذا حارب الناس أسلوب الحياة الراهنة والمجتمع الحالي حرباً لا هوادة فيها، توقد جذوتها عدة من المثل العليا العملية الصادقة.

فالدين الذي أتكلم عنه ليس ملجأ الضعفاء، ولكنه سلاح الأقوياء، فهو وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالإنسان ليصير سيد بيئته، المسيطر عليها، لا فريستها وعبدها الخانع»^(١).

وليس الدكتور هنري لنك وحده الذي عاد إلى الإيمان عن طريق التجربة والعلم، فهناك غيره كثيرون.

(١) العودة إلى الإيمان، ص ٢٨ - ٢٩.

لقد حدثنا الكاتب الأمريكي المشهور (دیل کارنیجی) - مؤلف (دع القلق وابدأ الحياة) وغيره من الكتب - أن موجة الشك والقلق انتابت إيمانه فترة من حياته، وأوشك أن يكون جاحداً ملحدًا، يرى أن الحياة تسير بلا غاية، وإلى غير مقصد، ويحسب أن البشر مجردون من الأهداف السامية؛ مثل: حيوانات (الديناصور) العملاقة التي كانت تجوب الأرض منذ مئتي مليون سنة، وأن النوع الإنساني مصيره إلى انقراض يشبه انقراض حيوان الديناصور.

ثم هبَّت على الرجل نفحة إيمان جعلته يشعر أن الحياة متاهة مُضِلَّة وصحراء قاحلة مهلكة بغير واحة الإيمان.

ومما قاله في هذا الصدد: «إنني يهمني الآن ما يسديه إليَّ الدين من النعم، تمامًا كما تهمني النعم التي تسديها إلينا الكهرباء والغذاء الجيد والماء النقي، فهذه تعيننا على أن نحيا حياة رغدة، ولكن الدين يسدي إليَّ أكثر من هذا، إنه يمدني بالمتعة الروحية، أو هو يمدني - على حد قول (وليم جيمس) - بدافع قوي لمواصلة الحياة.. الحياة الحافلة، الرحبة، السعيدة، الراضية.

إنه يمدني بالإيمان والأمل والشجاعة، ويقصي عني المخاوف والاكتئاب والقلق، ويزودني بأهداف وغايات في الحياة، ويفسح أمامي آفاق السعادة، ويعينني على خلق واحة خصبة وسط صحراء حياتنا».

لقد كان الفيلسوف (فرانسيس بيكون) على حق حين قال:

إن قليلاً من الفلسفة يجنح بالعقل إلى الإلحاد، ولكن التعمق في الفلسفة خليق أن يعود بالمرء إلى الدين.

إن السطحيين وأنصاف المتفلسفين، والمغرورين بقشور العلم والفلسفة هم الذين يتهورون، فيتورطون في اقتراف الخطيئة الكبرى: خطيئة الثورة على الدين، والتمرد على الله، بل الجحود لوجوده سبحانه. ومنهم من يفعل ذلك تظاهراً بالتححر وطلباً للشهرة، ومنهم من يفعله تبريراً لغرقه في الشهوات، وجريه وراء المتع والملذات، فهو يريد أن يهدم الدين من أساسه، ليسوغ لنفسه السقوط والانحلال، بلا تحرج ولا حياء من الناس، ولا حساب من ضمير.. فإلحاد هؤلاء إلحاد بطن وفرج، لا إلحاد عقل وفكر!.

أما الراسخون في العلم، المتعمقون في الفكر، فهم أعقل من أن يقطعوا أنفسهم عن هذا النور الذي لا يخبو، والزاد الذي لا ينفد، نور الإيمان، وزاد اليقين.

ولا غرو إن رأينا أعلام المشتغلين بالحياة النفسية، فلسفة ونظراً، أو علاجاً وطباً، يعلنون اعتصامهم بالعروة الوثقى، عروة الدين، ويدعون الناس إلى ذلك بصوت جهير.

قال (وليم جيمس) العالم النفسي الشهير بمذهبه في المنفعة العملية: «إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه ﷻ؛ تحققت كل آمياتنا وآمالنا».

وقال: «الإيمان من القوى التي لا بد من توفرها، لمعاونة المرء على العيش، وفقدتها نذير بالعجز عن معاناة الحياة».

وقال حين كان أستاذاً للفلسفة بجامعة هارفارد: «إن أعظم علاج للقلق - ولا شك - هو الإيمان».

• من الفلاسفة من يؤمن بأثر الإيمان وإن لم يؤمن بالله:

ولقد رأينا من المفكرين والفلاسفة من لا يؤمنون بالله، ولكنهم يؤمنون بالإيمان بالله! أي: يعتقدون بنفع هذا الإيمان، باعتباره قوة هادية موجّهة، وقوة مؤثّرة دافعة، وقوة مُنشئة خلّاقة.

لم يستطع هؤلاء أن يجحدوا ما للإيمان بالله من طيّب الأثر في نفس الفرد وفي حياة المجتمع، فقال بعضهم: لو لم يكن الله موجودًا لوجب علينا أن نخلقه! أي: نخترع للناس إلهاً يؤمنون به! ويلتمسون رضاه، ويخافون حسابه، حتى ترتدع الأنفس الشريرة، وتستقيم أخلاق الجماهير.

وقال آخر: لِمَ تشككون في الله، ولولاه لخانتني زوجتي، وسرقني خادمي؟!.

ونحن لا نوافق على منطق هؤلاء في عمومهم، فإن الحق أحق أن يتبع، مهما تكن نتيجته، والأباطيل يجب أن تطارد كيفما كانت العاقبة، ولكن الذي يعيننا من قول هؤلاء - وهم خصوم الدين وأعداء الإيمان - أن أثر الدين والإيمان في النفس والحياة، لا يمكن أن يكابر فيه إنسان منصف، ولو كان من خصوم الإيمان.

إن الحقيقة يجب أن تُحتَرَم لذاتها، وإن لم تجلب نفعًا، أو تدفع ضررًا، فكيف إذا كان من ورائها أعظم المنافع، وأطيب الثمرات؟!.

ووجود الله تعالى وتفوّده بالسلطان والتدبير واستحقاق العبادة، وبعثة النبيّين وصدّق ما أخبروا به عن الحياة الآخرة، كل هذا حق قامت الأدلة على صدق ثبوته، والإيمان به واجب؛ لأنه حق، ومع أنه

حق، فقد نيط به صلاح الظاهر والباطن، ورُقِّي الفرد والمجتمع، وسعادة الدنيا والآخرة.

• الإيمان الذي نعنيه هو الإيمان القوي الدافق:

ونحن حين نتحدث عن ثمرات الإيمان وآثاره في النفس والحياة إنما نعني الإيمان القوي الدافق، الإيمان حين يبلغ مداه، ويشرق على القلوب سناه، ويخُطُّ في أعماق النفوس مجراه، لا نتحدث عن الإيمان الضعيف المزعزع، الإيمان المخدَّر النائم، إنما نتحدث عن الإيمان الحيّ اليقظ، ولا يضيرنا أن أصحاب هذا الإيمان قليلون، فإننا نناقش هنا الماديين الذين يشكِّكون في قيمة الإيمان، ليتعلَّموا أن الإيمان الذي يحاربونه كلما زاد عمقه في القلوب، وسلطانه على النفوس، ازداد أثره المبارك في حياة الأفراد والجماعات.

وإذا كان هذا أثر الإيمان عمومًا، فإن الإيمان الإسلامي خصوصًا أكثر نفعًا وأطيب ثمرًا، فإن الإيمان في الأديان الأخرى قد علق به ما شابه وكدَّر صفاءه، وربما أمكن أن يؤخذ من تعاليم بعض الأديان، أو من سلوك رجالها، بأنها عدو للحياة، أو أفيون للشعوب كما زعم (كارل ماركس) اليهودي، وتلقفها الببغاوات هنا، فردَّذوها ترديد الحاكي، دون بصر ولا تمييز، فإن الدين هنا غير الدين هناك، والمجتمع هنا غير المجتمع هناك.

إن عقيدة الإسلام عقيدة تتسع للروح والمادة، والحق والقوة، والدين والعلم، والدنيا والآخرة، إنها عقيدة التوحيد التي تغرس في النفس الكرامة والحرية، وتجعل الخضوع لغير الله كفرًا وفسقًا وظلمًا، وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله.

• أثر الإيمان والدين في بلادنا الإسلامية:

وإذا كان للدين وللإيمان هذا الأثر في كل بلاد الدنيا، فإن أثره أعمق، وضرورته أعظم، في بلادنا الإسلامية والعربية خاصة.

إن لكل قُفْلٍ مُحَكَّمٍ أصيلٍ مُفْتاحًا معيّنًا، مهما حاولت فتحه بغيره كانت محاولتك عبثًا لا فائدة منها، ولا طائل تحتها، إلا إضاعة الوقت والجهد في تجارب فاشلة.

ومفتاح الشخصية الإسلامية والعربية على وجه خاص هو الدين، هو الإيمان، هو عقيدة الإسلام.

ومهما نحاول أن نُذَكِّي هذه الشخصية، وأن نُفَجِّر طاقاتها المكنونة بغير مفتاحها الأصيل - وهو الدين والإيمان - فإننا نحاول عبثًا، كمن يبني على الماء أو يكتب في الهواء.

بعقيدة الإسلام انطلق العرب من جزيرتهم، يُخرجون العالم من الظلمات إلى النور، ويؤدّبون بسيوفهم الأكاسرة والقيصرة، وكل من صَعَّر خده من الجبابرة، وينقلون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان والظُّلَم إلى عدل الإسلام.

وبعقيدة الإسلام انتصرت أمتنا العربية على أوربة، وقد جاءت بقضّها وقضيضها في تسع حملات صليبية، تريد أن تلتهم الأخضر واليابس في هذا الشرق المسلم.

وبعقيدة الإسلام انتصرت على غزو التتار الذين زحفوا على هذا الشرق كالريح العقيم، ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢].

وكادوا يدمرون الحضارة الإنسانية كلها، لولا أن قيَّض الله لهم من مسلمي مصر والشام من ردهم على أعقابهم، وهزموهم بإذن الله في (عين جالوت)، وكان مفتاح النصر صحيحة أطلقها القائد المملوكي (قطز)، فهزَّت المشاعر، واستثارت العزائم، وأيقظت الهمم، وهبَّت بها على المقاتلين نسمات الجنة، تلك هي الصحيحة التاريخية: وإسلاماه.

وأمتنا العربية اليوم تحارب عدوًّا شريرًا يجثم على صدرها، ويحتل قلب ديارها، ويهدد وجودها وكيانها بالتفتيت والتمزيق، ذلك هو «إسرائيل» التي تمدّها وتعاونها كل قوى الكفر في العالم، شرقية وغربية.

ولن نجد في حربنا مع هذا العدو سلاحًا أمضى ولا أبقى من الإيمان. لا بد من العناد الحربي والقوة المادية التي أمرنا الله بإعدادها، لنرعب بها عدو الله وعدونا، لكن السلاح لا يعمل إلا في يَدَي بطل، والبطل لا يصنعه إلا الإيمان.

ولقد فُتِنَ أقوام منا بالمذاهب المادية الحديثة، التي قذفنا بها الغرب، والتي لا تجعل لله ولا للآخرة مكانًا في الحياة، ولا تعترف بالدين إلا باعتباره خادمًا وأداة يمكن استخدامها - عند الضرورة - لاسترضاء الجماهير المتديّنة، أو إلهائها، أو استشارتها لغرض موقوت.

ومن أجل ذلك نُحْيِي الدين والإيمان عن مكانه في قيادة الأمة وتربيتها، وعُزِلَ عن التعليم والثقافة والتوجيه والإعلام، وعن سائر ميادين حياتنا الفكرية والعملية الاجتماعية والسياسية، إلا بعض رسوم ومظاهر وقشور أُبْقِيَت للدين، لا تُسَمِّن من شبع، ولا تغني من جوع.

فلما قامت المعركة في (١٩٦٧/٦/٥م)، بيننا وبين عدونا، كان معنا سلاح كثير وإيمان قليل، فلم يغنِ عنا السلاح شيئاً، لم تُغنِ الدبابات والطائرات والأساطيل وقواعد الصواريخ؛ لأن هذه الأسلحة - على حداثتها وضخامتها - لم يقدِر عليها رجال مؤمنون، ورحم الله المتنبى حين قال:

وما تنفع الخيلُ الكرامُ ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرامِ كرامُ

وهذه حقيقة - على مرارتها وقسوتها - يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنعترف بها، ونتخذ من هذه التجربة درساً وعبرة، ونبني حياتنا على أساس من الإيمان ومقتضياته، ونغير ما بأنفسنا، لِيُغَيِّرَ الله ما بنا، وإلا فسنظل كالثور في الساقية، يدور فيها ويدور، المكان الذي انتهى إليه هو الذي ابتداء منه.

إن عدونا يجند أبنائه على أساس ديني، ويقذف بهم في قلب المعارك بأحلام دينية، تدور حول مجد إسرائيل، وملك سليمان، ونبوءات التوراة، فكيف ننكر نحن دور الإيمان، وننحّي المؤمنين، بل نضطهدهم ونعذبهم؟! ونلقي بشعارات (النصر للثوار) و(الغلبة للجماهير) وأمتنا لا تعرف إلا أن (النصر للمؤمنين، والعاقبة للمتقين)!(^١).

ألا إن كل عمل يوجّه ضد الدين والإيمان في بلادنا إنما هو عمل عدائي موجّه إلى صميم كياننا ومقومات حياتنا، وجذور نهضتنا.

(نحن قوم مؤمنون)، وهذا الإيمان هو أساس شخصيتنا، وسر قوتنا، ورافع رايتنا، هو سر مجدنا في الماضي، وباعث انتفاضتنا في الحاضر، ومناط آمالنا في المستقبل.

(١) انظر في هذا كتابنا: (درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا؟ وكيف نتصّر؟).

(نحن قوم مؤمنون)، وهذه قضية بديهية، يجب أن يلتقي على حمايتها وتثبيتها وإشاعتها: قلم الكاتب، ولسان الخطيب، وفكر الفيلسوف، ووجدان الشاعر، وريشة المصور، وتقنين المشرّع، وسلطان الحاكم، وقوة الجيش، ورقابة الشعب.

يجب أن يرعاها الأب في البيت، والمعلم في المدرسة، والأستاذ في المحاضرة، والأديب في القصة، والصحفي في الخبر، والمؤلف في الكتاب، وكل ذي فن في فنه.

إن كل ثغرة تفتح في أي جانب من جوانب حياتنا الثقافية والفنية والعملية لتصوب منها سهام الشك أو الجحود إلى صدر الإيمان، تعد خيانة عظمى لأمتنا وخروجاً سافراً على مبادئها، ومروقاً من صفوفها، وانضماماً إلى ألد أعدائها، وتعويقاً لما تقوم به الجوانب الأخرى من جهاد إيجابي بناء.

وإني لعلّى يقين أن كلمة الإيمان ستعلو وتنتصر، وإن كلمة الكفر والشك ستكون هي السفلى، وصدق الله العظيم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ • تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ • وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

• أثر الإيمان في حياة الفرد:

هل نستطيع أن نحدد أهم ما يريده الإنسان لنفسه، وما ينشده في حياته؟ إن الإنسان يريد أن يشعر بإنسانيته، ويريد أن يحس بكرامته وذاتيته، وينشد شيئاً يلهث الناس جميعاً في البحث عنه: إنه ينشد السعادة، ينشدها

في هذه الحياة لا في الحياة الأخرى فحسب.. لا يريد أن يقضي أيامه المقدرة له في الدنيا شقيًا وتعيسًا.. يريد أن يعيش حياته ناعمًا بسكينة النفس، وطمأنينة القلب.. يريد أن يتمتع بالأمن الداخلي يعمر جوانحه، وبالرضا الذاتي يملأ أقطار روحه، وبالأمل المشرق يضيء آفاق حياته، وبالحب الكبير يغمر بالنور والضياء كل حناياه، وكل جوانب دنياه.

هذه هي أهم وأعظم ما ينشده «الإنسان» السوي لنفسه، ولكل من يحبه من أهله ومن الناس.

فهل للإيمان أثر في تحقيق هذه المعاني الكبيرة، والأهداف العميقة، في حياة الفرد؟.

• الإيمان وكرامة الإنسان:

الإنسان في ظل الإيمان يشعر بكرامته، ويحس بذاتيته، فهو عند المؤمنين مخلوق كريم على الله تعالى، خلقه ربه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وميَّزه بالعلم والإرادة، وجعله خليفة في الأرض، ومحور النشاط في الكون، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فكل ما في الكون له ولخدمته، أمّا هو فجعله الله لنفسه.

وقد جاء في بعض الآثار الإلهية: يقول تعالى: ابن آدم، خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقتك لك عمّا خلقتك له، ابن آدم، خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتِكَ فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء.

هذه هي معاني الكرامة والعزة التي تغرسها العقيدة في قلب المؤمن باعتباره (إنساناً)، ولكنه بوصفه (مؤمنًا) يشعر بمعانٍ أعمق، وعزة أشمخ، ويسمو به إيمانه إلى سماء عالية لا يُسعى إليها على قدم، ولا يطار على جناح، وهو بوصفه عضوًا في أمة الإيمان يشعر بكرامة أكبر وعزة أعمق:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

يشعر المؤمن بالعزة التي سجّلها الله في كتابه للمؤمنين مقرونة بالعزة لنفسه ولرسوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨].

ويشعر بأنه كتب له الكرامة والحرية التي بها يعلو ولا يعلو، ويسود ولا يساد: ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

إن هذه المعاني الكبيرة، والمشاعر الرفيعة، إذا سرت في كيان فرد، جعلت منه إنسانًا عزيزًا كريمًا، كبير النفس، كبير الآمال، إنسانًا لا يحني رأسه لمخلوق، ولا يطأطئ رقبته لجبروت، أو طغيان أو مال أو جاه.. إن شعاره هذه الكلمة: سيد في الكون، عبد لله وحده.

لا عجب بعد هذا، إذا رأينا عبدًا أسود كبلال بن رباح، حين يُشرب قلبه بالإيمان، يتيه على (السادة) المتكبرين فخراً، ويرفع رأسه عاليًا، فقد صار بالإيمان أرفع عند الله ذكراً، وأسمى مقامًا، ينظر إلى أمية بن خلف وأبي جهل بن هشام وغيرهما من زعماء قريش وصناديد مكة، نظرة البصير للأعمى، نظرة السائر في النور إلى المتخبط في الدجى:

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢].

• الإيمان والسعادة:

السعادة هي جنة الأحلام التي ينشدها كل بشر، من الفيلسوف في قمة تفكيره وتجريده، إلى العامي في قاع سذاجته وبساطته. ومن الملك في قصره المشيد، إلى الصعلوك في كوخه الصغير. ولا نحسب أحدًا يبحث عن الشقاء لنفسه، أو يرضى بتعاستها.

- لكن: أين السعادة؟:

هل السعادة في النعيم المادي؟ هل السعادة في الأولاد؟ هل السعادة في العلم التجريبي؟.

لقد جرب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية، وصنوف الشهوات الحسية، فما وجدوها - وحدها - تحقق السعادة أبدًا، وربما زادتهم - مع كل جديد منها - همًّا جديدًا.

- السعادة في داخل الإنسان:

السعادة شيء معنوي لا يُرى بالعين، ولا يقاس بالكم، ولا تحتويه الخزائن، ولا يُشترى بالدينار، أو بالجنيه أو الروبل أو الدولار.

السعادة شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه.. صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانسراح صدر، وراحة ضمير.

السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه.

حدّثوا أن زوجًا غاضب زوجته، فقال لها متوعدًا: لأشقيّنك. فقالت الزوجة في هدوء: لا تستطيع أن تشقيني، كما لا تملك أن تسعدني. فقال الزوج في حنق: وكيف لا أستطيع؟.

قالت الزوجة في ثقة: لو كانت السعادة في راتب لقطعتّه عني، أو زينة من الحلّي والحلل لحرمتني منها، ولكنها في شيء لا تملكه أنت ولا الناس أجمعون!.

فقال الزوج في دهشة: وما هو؟.

فقالت الزوجة في يقين: إني أجد سعادة في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي!.

هذه هي السعادة الحقّة، السعادة التي لا يملك بشر أن يعطيها، ولا يملك أن ينتزعها ممن أوتيها، السعادة التي شعر بنشوتها أحد المؤمنين الصالحين، فقال: إننا نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!.

وقال آخر وهو ثمل بتلك اللذة الروحية التي تغمر جوانبه: إنه لتمر عليّ ساعات أقول فيها: لو كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه الآن لكانوا إذاً في عيش طيّب!.

والذين رزقوا هذه النعمة يسخرون من الأحداث وإن برقت ورعدت، ويبتسمون للحياة وإن هي كشرت عن نابها، ويفلسفون الألم، فإذا هو يستحيل عندهم إلى نعمة تستحق الشكر، على حين هو عند غيرهم مصيبة تستوجب الصراخ والشكوى، كأنما عندهم غدد روحية خاصة، مهمتها أن تفرز مادة معينة تتحول بها كوارث الحياة إلى نعيم.

وإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية، والقلب الإنساني، فإن الإيمان بالله وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها، وهواؤها وضيائها.

• سَكِينَةُ النَّفْسِ:

ومن آثار الإيمان في حياة الفرد أن يمنحه سَكِينَةُ النَّفْسِ، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وهذه السكينة ينزلها الله تعالى في قلوب المؤمنين ليزدادوا بها إيماناً مع إيمانهم، هي ينبوع الأول للسعادة، وليس لها إلا مصدر واحد لا شريك له، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، الإيمان الصادق العميق، الذي لا يكدره شك، ولا يفسده نفاق.

هذا ما يشهد به الواقع الماثل، وما أيده التاريخ الحافل، وما يلمسه كل إنسان بصير منصف، في نفسه وفيمن حوله.

قد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقاً وضيقاً واضطراباً، وشعوراً بالتفاهة والضياع؛ هم المحرومون من نعمة الإيمان وبرد اليقين.

إن حياتهم لا طعم لها ولا مذاق، وإن حفلت باللذائذ والمرفهات؛ لأنهم لا يدركون لها معنى، ولا يعرفون لها هدفاً، ولا يفقهون لها سرّاً، فكيف يظفرون مع هذا بسكينة نفس، أو انشراح صدر؟!.

أمّا المؤمن فيشعر بسكينة النفس وطمأنينة القلب تعمر كيان حياته، فيثبت إذا اضطرب الناس، ويرضى إذا سخط الناس، ويوقن إذا شك الناس، ويصبر إذا جزع الناس، ويحلم إذا طاش الناس.

هذه السكينة هي التي عمرت قلب رسول الله ﷺ يوم الهجرة، فلم يعثره هم ولا حزن، ولم يستبدّ به خوف ولا وجل، ولم يخالج صدره شك ولا

قلق: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

- استجابة المؤمن لنداء الفطرة:

ذلك أنَّ المؤمن قد هُدي إلى فطرته التي فطره الله عليها، وهي فطرة متسقة كل الاتساق مع فطرة الوجود الكبير كله، فعاش المؤمن مع فطرته في سلام ووثام، لا في حرب وخصام.

إنَّ في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم ولا ثقافة ولا فلسفة، وإنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا.

وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظماً، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

هناك تسريح من تعب، وترتوي من ظماً، وتأمين من خوف. هناك تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار بعد التخبُّط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان المنزل والأهل بعد طول الغربة والضرب في أرض التيه.

- اهتداء المؤمن إلى سر وجوده نجاة من عذاب الحيرة والشك:

والمؤمن تعمّر حياته السكينة النفسية والطمأنينة القلبية؛ لأنه سلم من الشك والاضطراب، واستراح من البلبلة والحيرة، الذهنية والنفسية، التي يتجرع غصصها الجاحدون المرتابون.

بهذا الإيمان الواضح المريح حل المؤمن ألغاز الوجود الكبرى، حين عرف مبدأه ومصيره، وغايته ومهمته، بل عرف مبدأ الوجود كله ومنتهاه وغايته وهدفه.. فانحلت عقد الشك من نفسه، وزالت علامات الاستفهام الكبيرة من حياته.

والمؤمن تعمر قلبه السكينة النفسية والطمأنينة القلبية عندما حصر
الغايات كلها في غاية واحدة، عليها يحرص، وإليها يسعى، وهي رضوان
الله تعالى، لا يبالي معه برضا الناس أو سخطهم، شعاره ما قال الشاعر:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب^(١)

كما جعل المؤمن همومه همًا واحدًا، هو سلوك الطريق الموصل إلى
مرضاته تعالى، والذي يسأل الله في كل صلاة عدة مرات أن يهديه إليه،
ويوفقه لسلوكه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وهو طريق واحد لا عوج فيه ولا التواء: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا
فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وما أعظم الفرق بين رجلين، أحدهما عرف الغاية، وعرف الطريق
إليها، فاطمأن واستراح، وآخر ضالًّا، يخطئ في عماية، ويمشي إلى غير
غاية، لا يدري إلام المسير، ولا أين المصير: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ
أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

• أنس المؤمن بالوجود كله:

والمؤمن تعمر حياته السكينة النفسية والطمأنينة القلبية؛ لأنه يعيش
موصولًا بالوجود كله، ويحيا في أنس به، وشعور عميق بالتناسق معه،

(١) من شعر أبي فراس، والبيت الأخير للمتنبي في قصيدته في مدح سيف الدولة.

والارتباط به، فليس هذا الكون عدوًّا له، ولا غريبًا عنه، إنه مجال تفكره واعتباره، ومسرح نظره وتأملاته، ومظهر نعم الله وآثار رحمته.

هذا الكون الكبير كله يخضع لنواميس الله كما يخضع المؤمن، ويسبِّح بحمد الله كما يسبِّح المؤمن.

والمؤمن ينظر إليه نظرتَه إلى دليل يهديه إلى ربه، وإلى صديق يؤنسه في وحشته.

وبهذه النظرة الودود الرحبة للوجود، تتسع نفس المؤمن، وتتسع حياته، وتتسع دائرة الوجود الذي يعيش فيه.

ليس هناك أوسع من صدر المؤمن وقلبه الذي وسع العالمين، المنظور وغير المنظور، عالم الشهادة وعالم الغيب، ووسع الحياتين: الدنيا والآخرة، حياة الفناء، وحياة الخلود، ووسع الوجودين: الوجود المحدث الفاني، والوجود الواجب الباقي، الوجود الأزلي الأبدي، وجود الله ﷻ.

وليس هناك أضيق من صدر الملحد والشاك في الله والآخرة، إن حياته أضيق من سجن، بل من (زنزانة) في سجن، إنه يعيش معزولاً عن الأزل والأبد، عن الأمس والغد؛ لا يعرف إلا يومه، ولا يعرف من يومه إلا لذاته المُحَسَّنة، وهو يعيش معزولاً عن الوجود العريض، لا يرى منه إلا شخصه وشخصاً محدودة أخرى، ولا يرى من شخصه، إلا جسمه المادي، ودوافعه الحيوانية.

هذه حقيقة ثابتة، وسنة ماضية، منذ أهبط الله آدم وزوجه إلى الأرض، ثم قال لهما: ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي

هُدًى فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴿ [طه: ١٢٣ - ١٢٤].

- المؤمن يعيش في معية الله:

والمؤمن تعمّر حياته السكينة النفسية والطمأنينة القلبية؛ لا يعترّيه ذلك المرض النفسي الوبيل، الذي يفتك بالمحرومين من الإيمان، ذلك هو مرض الشعور بالوحدة المقلقة، فيحس صاحبه أن الدنيا مقفلة عليه، وأنه يعيش فريداً منعزلاً؛ كأنه بقية غرقى سفينة ابتلعها اليم، ورمّت به الأمواج في جزيرة صغيرة موحشة يسكنها وحده، لا يرى إلا زرقة البحر وزرقة السماء، ولا يسمع إلا صفير الرياح، وهدير الأمواج.

والمختصون متفقون على أن هذا المرض من أخطر أمراض النفس، لما يجلبه على صاحبه من عزلة وفقدان للثقة بمن يتعاملون معه؛ إذ يعتقد أن كل من حوله دونه، وأنهم يخالفونه في كل مقومات الحياة، وأينما التفت لا يجد غير نفسه.

فهل يستطيع مثل هذا الإنسان أن يعمل أو ينتج، أو أن يظل محتفظاً بوعيه وقدرته على الفهم والتركيز؟ وهل يمكن لمثله أن يظفر بالسكينة والاطمئنان؟ الجواب طبعاً: لا.

وقد انتهى رأي المنصفين من الأطباء وعلماء النفس أخيراً إلى أن العلاج الأمثل لهذا المرض هو اللجوء إلى الدين، والاعتصام بعروة الإيمان الوثقى، وإشعار المريض بمعية الله والأنس به.

فهذا الإيمان القوي هو خير دواء لعلاج هذا المرض الخطير، كما أنه خير وقاية من شرّه.

إنَّ شعور المؤمن بأن يد الله في يده، وأن عنايته تسير بجانبه، وأنه ملحوظ بعينه التي لا تنام، وأنه معه حيث كان، يطرد عنه شبح الوحدة المخيف، ويزيح عن نفسه كابوسها المزعج.

كيف يشعر بالوحدة من يقرأ في كتاب ربه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]؟!.

إنَّه لا يشعر إلا بما شعر به موسى حين قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وما شعر به محمد في الغار حين قال لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

- المؤمن لا يعيش بين (لو) و(ليت):

وإن من أهم عوامل القلق الذي يفقد الإنسان سكينته النفس وأمنها ورضاها هو: تحسُّره على الماضي، وسخطه على الحاضر، وخوفه من المستقبل.

إنَّ بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر، فيظل فيها شهوًّا وأعوامًا، يجترُّ آلامها، ويستعيد ذكرياتها القاتمة، متحسِّرًا تارة، متمنيًا أخرى. شعاره: ليتني فعلتُ، وليتني تركتُ، لو أني فعلت كذا لكان كذا، وقديمًا قال الشاعر:

ليت شعري، وأين منِّي «ليت»؟ إن «ليتًا» وإن «لوا» عناء^(١)

ولذا ينصح الأطباء النفسيون، والمرشدون الاجتماعيون، ورجال

(١) من شعر أبي الزبيد الطائي.

التربية، ورجال العمل: أن ينسى الإنسان آلام أمسه، ويعيش في واقع يومه، فإن الماضي بعد أن ولى لا يعود.

ما مضى فات، والمؤمل غيبٌ ولك الساعة التي أنت فيها^(١)

وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة والأفكار الداجية هو المؤمن الذي قوي يقينه بربه، وآمن بقضائه وقدره، فلا يسلم نفسه فريسة للماضي وأحداثه، بل يعتقد أنه أمر قضاءه الله كان لا بد أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضا والتسليم، ثم يقول ما قال الشاعر:

سبقت مقاديرُ الإلهِ وحكمهُ فأرخ فؤادك من «لعل» ومن «لو»
وقول الآخر:

ولستُ براجعٍ ما فات مني بـ(لهف) ولا بـ(ليت) ولا (لو أني)

إنه لا يقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا. ولكن يقول: قدر الله وما شاء فعل. فإن «لو» تفتح عمل الشيطان^(٢)، كما علمه الرسول ﷺ.

إنه يوقن أن قدر الله نافذ لا محالة، فلم السخط؟ ولم الضيق والتبرم؟ والله تعالى يقول: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

إن شعار المؤمن دائماً: قدر الله وما شاء فعل.. الحمد لله على كل حال. وبهذا لا يأسى على ما فات، ولا يحيا في خضم أليم من الذكريات،

(١) من شعر إبراهيم بن عثمان الغزي.

(٢) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، عن أبي هريرة.

وحسبه أن يتلو قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

• الرضا:

ومن آثار الإيمان في حياة الفرد الذي هو من أول أسباب السكينة النفسية التي هي سرُّ السعادة: الرضا الذي يجعله مستريح الفؤاد، منشرح الصدر، غير متبرم ولا ضجر، ولا ساخط على نفسه، وعلى الكون والحياة والأحياء.

في الحديث يقول النبي ﷺ: «من سعادة المرء استخارته ربه ورضاه بما قضى، ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء»^(١).

هذا الرضا نعمة روحية جزيلة، هیهات أن يصل إليها جاحد بالله، أو شاك فيه، أو مرتاب في جزاء الآخرة، إنما يصل إليها من قوي إيمانه بالله وحسن اتصاله به.

وقد خاطب الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ [طه: ١٣٠].

وامتنَّ عليه بقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى: ٥].

وقال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً»^(٢).

(١) رواه أحمد (١٤٤٤) وقال مخرجه: إسناده ضعيف، والترمذي في القدر (٢١٥١) وقال: غريب،

عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٣٤)، وأحمد (١٧٧٨)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٣)، عن

العباس بن عبد المطلب.

وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].
ومنشأ هذا الرضا أنَّ المؤمن راضٍ عن نفسه، أعني عن وجوده ومكانه في الكون؛ لأنه يعلم أنه ليس ذرة ضائعة، ولا كمًّا مهملاً، ولا شيئاً تافهاً، بل هو قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، وخليفة في أرض الله.
وهو راضٍ عن ربه؛ لأنه آمن بكماله وجماله، وأيقن بعدله ورحمته، واطمأن إلى علمه وحكمته، وأنه أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة.

فهو موقن تمام اليقين: أن تدبير الله له أفضل من تدبيره لنفسه، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبويه به، ينظر في الأنفس والآفاق فيرى آثار بره تعالى ورحمته، فيناجي ربه: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

والمؤمن - نتيجة لهذا - راضٍ عن الحياة والكون من حوله؛ لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله الذي أتقن كل شيء، ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وكل ذرة في الأرض أو السماء تدل على حكمة حكيم، وتقدير عزيز عليم، وتدبير ملك عظيم، ورعاية رب كريم رحيم.

- المؤمن عميق الإحساس بنعم الله:

إن مما يسخط الناس على أنفسهم وعلى حياتهم، ويحرمهم لذة الرضا، أنهم قليلو الإحساس بما يتمتعون به من نعم غامرة، ربما فقدت قيمتها بآلفها، أو بسهولة الحصول عليها، وهم يقولون دائماً: ينقصنا كذا وكذا، ونريد كذا وكذا، ولا يقولون: عندنا كذا وكذا.

ولكن المؤمن عميق الإحساس بما لله عليه من فضل عظيم، وإحسان عظيم، ونعم تحيط به عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته.

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه في كل شيء حوله، ويرى في كل ذرة في الأرض أو في السماء منحة من الله له، تيسر له معيشته، وتعينه على القيام برسالته في الحياة. إنه يرى نعمة الله في هبة الريح، وسير السحاب، وتفجر الأنهار، وبزوغ الشمس، وطلوع الفجر، وضيء النهار، وظلام الليل، وتسخير الدواب، وإنبات النبات.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾ [لقمان: ٢٠].

أمّا نعمة الله عليه في شخصه هو، فما أعظمها! وما أغزرها! فمن نعمة الخلق والإيجاد، إلى نعمة العلم والإدراك، ونعمة الرزق، ثم أعظمها نعمة الإيمان والهداية إلى صراط الله المستقيم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧ - ٨].

- المؤمن راض بما قدر الله عليه:

والمؤمن كما يغمره الشعور بنعمة الله عليه في كل حين وفي كل حال، لا يفقد هذا الشعور وإن أصابته البأساء والضراء، وهزته زلازل الحياة.

إنه راض بما قضى الله له، وما قدر عليه، إيماناً بأن الله تعالى لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا يقضي أمراً يريد به عسراً لعباده، وأنه سبحانه أرحم بهم من الوالدة

بولدها، وأن الخير مطوي في جوف ما نظنه كارثة وشرًا، وما نكرهه بطبيعتنا البشرية: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

• الأمن النفسي:

ومن آثار الإيمان في حياة الفرد والذي يمنحه السكينة النفسية والطمأنينة: الأمن، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

المؤمن لا يواجه المستقبل خائفًا وجلًا، ولا يعيش في فزع منه، ورهبة من غموضه، وتوجُّس من جبروته، كأنه عدو شرير متربِّص، بل يعيش آمن النفس كأنه في الجنة.

إن إيمانه كان مصدر أمنه، والأمن من ثمرات الطمأنينة والسكينة، بل هو نوع منها، إنه طمأنينة تتعلَّق بالمستقبل، بكل ما يتوقعه الإنسان ويخاف منه، أو يخاف عليه، ولا سعادة بدون هذا الأمن النفسي.

وقد قيل لحكيم: ما السرور؟ فقال: الأمن؛ فإني وجدت الخائف لا عيش له.

ولا عجب أن جعل الله الجنة دار أمن وسلام كاملين، فأهلها في الغرفات آمنون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتتلقاهم الملائكة منذ اللحظة الأولى: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦].

- الإيمان مصدر الأمان:

إن الناس يخافون من أشياء كثيرة، وأمور شتى، ولكن المؤمن سد أبواب الخوف كلها، فلم يعد يخاف إلا الله وحده، يخافه أن يكون فرط

في حقه، أو اعتدى على خلقه، أما الناس فلا يخافهم؛ لأنهم لا يملكون له ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

أمّا الملحدون الجاحدون فهم أكثر الناس مخاوف - وإن كتموها عن الناس - إنهم يخافون الزمن والكوارث، والفقر والمرض والناس، وأشد ما يُخيفهم الموت، فهم ينظرون إليه نظرتهم إلى سبع فاتك، وعدو متربص، ونهاية مجهولة، ومصير مخوف.

والمؤمن قد سلم من ذلك كله، إنه آمنٌ على رزقه أن يفوت؛ فإن الأرزاق في ضمان الله الذي لا يخلف وعده، ولا يضيع عبده، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ • فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنتُمْ نَاطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢ - ٢٣].

وهو بذلك مطمئن إلى أن الله لن يهلكه جوعاً، وهو الذي يطعم الطير في الوُكُنات، والسباع في الفلوات، والأسماك في البحار، والديدان في الصخور. وكذلك آمن المؤمن على أجله؛ فإن الله قدّر له ميقاتاً مسمى، أياماً معدودة وأنفاساً محدودة، لا تملك قوة أن تنقص من هذا الميقات أو تزيد فيه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

هذا الأمن على الرزق والأجل منح المؤمن السكينة والطمأنينة، كما منحه القوة في مواجهة الحياة، وما فيها من طغيان وجبروت.

هَدَّدَ الحجاجُ سعيدَ بن جبير بالقتل، فقال له: لو علمت أن الموت والحياة في يدك ما عبدت إلهاً غيرك!.

- المؤمن لا يخاف الموت:

وهو كذلك لا يعيش في خوف من الموت، وجزع من مرارة كأسه، إنه زائر لا بد من لقائه، وقادم لا ريب فيه، والخوف لا يردده، والجزع لا يثنيه:

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨].

﴿ آتِنَا تَكُونُوا يَذَرِكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

إنَّ مما يهون شأن الموت عند المؤمن أنه في عقيدته ليس عدماً محضاً، ولا فناء صرفاً، إنه انتقال من حياة إلى حياة، ومن طور إلى طور، وفي الأثر: إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار^(١).

إن الله - وهو الجواد المطلق - لا يسلب نعمة أنعم بها إلا وهو يعطي نعمة أكبر منها، فلا يسلب هذه الحياة الضعيفة القيمة التي لا تستحق أن تسمى الحياة الباقية إلا ويعطي حياة أوسع وأبقى وأجمل وأفضل.

وقال يحيى بن معاذ: لا يكره لقاء الموت إلا مُريب، فهو الذي يقرب الحبيب من الحبيب.

وقيل لأعرابي اشتد مرضه: إنك ستموت. فقال: وإلى أين يُذهب بي بعد الموت؟ قالوا: إلى الله. فقال: ويحكم، وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده؟!.

• الأمل:

ومن آثار الإيمان في حياة الفرد، وهو مصدر من مصادر السعادة لديه: الأمل الذي به تنمو شجرة الحياة، ويرتفع صرح العمران، ويذوق المرء طعم السعادة، ويحس بيهجة الحياة، والذي بدونه تصبح الحياة أضيق من حلقة الخاتم، بل من سمّ الخياط.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٨٧/٥).

وقديماً قال الشاعر:

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!^(١)

و ضد الأمل اليأس، وهو انطفاء جذوة الأمل في الصدر، وانقطاع خيط الرجاء في القلب، فهو العقبة الكؤود، والمعوق القاهر، الذي يحطم في النفس بواعث العمل، ويوهي في الجسد دواعي القوة، ورحم الله من قال:

واليأس يُخْذِثُ في أعضاء صاحبه ضَعْفًا وَيُورِثُ أَهْلَ الْعَزْمِ تَوَهُينًا

بل هو سم بطيء لروح الإنسان، وإعصار مدمر لنشاط الإنسان، وتلك حال اليائسين أبد الدهر: لا إنتاج في الحياة، ولا إحساس بمعنى الحياة.

ولذلك جعله الله تعالى قرين الكفر وطريق الضلال:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

ولذلك كان هذا الأمل ملازماً للإيمان، وكان المؤمن أوسع الناس أملاً، وأكثرهم تفاؤلاً واستبشاراً، وأبعدهم عن التشائم والتبرُّم والضجر، إذ الإيمان معناه الاعتقاد بقوة عليا تدبّر هذا الكون، لا يخفى عليها شيء، ولا تعجز عن شيء، الاعتقاد بقوة غير محصورة، ورحمة غير متناهية، وكرم غير محدود، الاعتقاد بإله قدير رحيم، يجيب المضطرّ إذا دعاه، ويكشف السوء، يمنح الجزيل، ويغفر الذنوب، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، إله هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأبر بخلقه من أنفسهم.

(١) من شعر الطغرائي.

إن الماديين يقفون عند السنن المعتادة، والأسباب الظاهرة، لا يطمعون في شيء وراءها، أما المؤمنون فيَعْلُون على ظواهر الأسباب، وينفذون إلى سرِّ الوجود، إلى الله خالق الأسباب والمسببات، الذي عنده من الأسباب الباطنة ما يخفى على إدراك عباده، فلماذا لا تتجه قلوبهم إليه حين تَذَلُّهُمُ الأزمات، وتستحكم الحلقات، ويضيق على أعناقهم الخناق؟!.

إنهم يجدون فيه الملاذ في الشدة، والأنيس في الوحدة، والنصير في القلة.

يتجه إليه المريض الذي استعصى مرضه على الأطباء، ويدعوه آملاً الشفاء.

ويتجه إليه المكروب يسأله الصبر والرضا، والخلف من كل فائت، والعوض من كل مفقود.

ويتجه إليه المظلوم آملاً يوماً قريباً ينتصر فيه على ظالمه، فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب.

ويتجه إليه المحروم من الأولاد سائلاً أن يرزقه ذرية طيبة.

وكل واحد من هؤلاء آملٌ في أن يُجاب إلى ما طلب، ويُحقَّق له ما ارتجى، فما ذلك على قدرة الله ببعيد، وما ذلك على الله بعزير.

• الثبات في الشدائد:

ومن آثار الإيمان في حياة الفرد: الثبات في الشدائد، ففي الحديث يقول النبي ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك

لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيرًا له»^(١).

إنّ طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل، أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال، أو.. أو.. إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة... حتى قال الشاعر يصف الدنيا:

جُبِلْتُ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفَوْا مِنَ الْآلَامِ وَالْأَكْدَارِ!^(٢)

- الملحدون أشدُّ الناس جزعًا:

وقد أثبت الاستقراء والمشاهدة أن أشد الناس جزعًا، وأسرعهم انهيارًا أمام شدائد الحياة؛ هم الملحدون والمرتابون وضعاف الإيمان، وقد وصف القرآن هذا النموذج من الناس فقال: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

إنهم لا يؤمنون بقدر، فيرضوا به، ولا بآله، فيطمئنوا إلى حكمته في خلقه، ولا بأنبياء، فيجدوا في حياتهم القاسية قدوة وعبرة، ولا بحياة أخرى، فتهد عليهم نسوماتها منعشة للنفس، وطاردة للكآبة، باعثة للأمل.

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٧٦٩٢)، وأحمد (١٨٩٣٤)، عن صهيب الرومي.

(٢) من شعر: أبي الحسن التهامي، يرثي ولده.

- ثبات المؤمنين ومصدره:

أما المؤمنون فهم أصبر الناس على البلاء، وأثبتهم في الشدائد، وأرضاهم نفساً في المُلِمَّات؛ لأنهم عرفوا أن ما ينزل بهم من مصائب ليس ضربات عجماء، ولا خبط عشواء، ولكنه وفق قدر معلوم، وقضاء مرسوم، وحكمة أزلية، وكتابة إلهية، فأمنوا بأنه ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وعرفوا من لطف ربهم أن هذه الشدائد دروس قيِّمة لهم، وتجارب نافعة لدينهم ودنياهم، تنضح نفوسهم، وتصلق إيمانهم، وتذهب صدأ قلوبهم: «مثل المؤمن تصيبه الوعكة من البلاء، كمثل الحديد تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها»^(١).

وما أبلغ ما قال الرافعي: «ما أشبه النكبة بالبيضة، تُحَسَّبُ سَجَنًا لما فيها وهي تحوطه، وتربِّيه وتُعينه على تمامه، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة، والرضا إلى غاية، ثم تُنْقَفُ^(٢) البيضة، فيخرج خلق آخر.

وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته: عمله أن يتكون فيها، وتمامه أن ينبثق شخصه الكامل فيخرج إلى عالمه الكامل»^(٣).

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٧٣/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، بلفظ: «إنما مثل العبد المؤمن حين يصيبه الوعك والحمى، كمثل حديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها»، عن عبد الرحمن بن أزهر.

(٢) النقف: ثقب البيضة ونقب قشرتها.

(٣) وحي القلم (٩٧/٢).

ورجاء مثوبة الله تعالى على ما يبتلى به الإنسان في دنياه نعمة روحية أخرى تهوّن على الإنسان البلاء، وهذه المثوبة تتمثل في تكفير السيئات، وما أكثرها! وزيادة الحسنات، وما أحوج الإنسان إليها! وفي الحديث الصحيح: «ما يصيب المسلم من همٍّ ولا غمٍّ ولا نصب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها»^(١).

أصاب أحد الصالحين شيء في قدمه، فلم يتوجع ولم يتأوه، بل ابتسم واسترجع، فقيل له: يصيبك هذا ولا تتوجع؟ فقال: إن حلاوة ثوابه أنستني مرارة وجعه!.

• الملحدون يعترفون بأثر الإيمان في الأزمات:

بقي أن نقول: إنّ الملحدين أنفسهم شعروا بأن أنظمتهم وفلسفتهم المادية الجامدة لا تستطيع أن تهب للناس الروح المعنوية التي تهون عليهم الشدائد، وتمدهم بالصبر والثبات في الأزمات، ولم يملك الشيوعيون - على تعصّبهم - في الحرب العالمية الثانية إلا أن يطلقوا سراح الدين وقتاً ما ليؤدي دوره في تثبيت النفوس وإمساكها أن تنخلع وتنهار، وأرغمتهم الظروف أن يتركوا الشعوب ترجع إلى فطرتها، فتملاً فراغها بما لا يمكن أن تُملأ إلا به، بالإيمان.

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المرضي (٥٦٤١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣)، عن أبي هريرة.

لماذا أنتم مسلمون؟



قال صاحبي: اجتمعتُ في مدينة لندن مع مجموعة كبيرة، معظمهم من المسلمين الجدد، يمثلون بلادًا مختلفة، وألوانًا مختلفة، وألسنة مختلفة، وثقافات مختلفة، فهناك الأوروبيون والأمريكيون، الذين يمثلون الثقافة الغربية، التي تسود العالم.

وهناك اليابانيون والصينيون والكوريون، الذين يمثلون ثقافات أخرى وألسنة أخرى، لها أهلها ودورها في عالمنا.

وهناك الهنود والباكستانيون والبنغاليون، ويمثلون جنسًا آخر وثقافة أخرى.

وهناك الإندونيسيون والماليزيون بجوارهم، يمثلون جنسًا وثقافة أخرى.

وهناك عرب وأفارقة وآسيويون وأستراليون، ومن كل قارات العالم.

ولكن الغريب أن هؤلاء جاؤوا إلى لندن ليشاركوا في أحد المؤتمرات الإسلامية العالمية، كل منهم يمثل بلده أو جمعيته أو جامعته، أو مدرسته، أو مؤسسته، فرغم هذا التباين الذي ذكرنا، رأينا أنهم جميعًا (مسلمون)، جاؤوا من بلاد وقارات وثقافات، غير أنهم ينتمون إلى دين واحد، هو الإسلام.

كلهم ينطق بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله. وكل واحد منهم يشعر أنه أخ لهذه المجموعة التي حضرت من مختلف الأماكن والمساكن والمناطق والحضارات، وأن هذه الأخوة أنستهم كل ما يفرق بينهم في العادة من الاختلاف القاري: أوربي، أمريكي، آسيوي، إفريقي، أسترالي. أو الاختلاف اللوني: أبيض، أو أسود، أو ملوّن. أو الاختلاف الجنسي: عربي، عجمي. أو الاختلاف الطبقي: غني، فقير.

كان وجود هذه الفئات المتنوعة من المسلمين مصدرًا مهمًا لكثير من التساؤلات، من الذين يبحثون عن المعرفة بالسؤال، مثل صاحبي الذي يُتعب بكثرة أسئلته.

- قال لهم: نريد أن نطرح عليكم أسئلتنا الصريحة، فهل تساعدونا على ذلك؟.

- المشاركون: يسرنا أن نجيب عن أي سؤال يوجه إلينا، ما دام سؤالًا يتسم بالعقل والحكمة.

- السائل: صدقتم، والله لا أريد أن أسألكم إلا عما أحتاج إلى معرفته، وإجابته عندكم، إذا لم يمنعكم مانع منه. أريد أن أسألكم منفردين ومجتمعين: ما الذي أعجبكم في الإسلام؟ وخصوصًا أن منكم من لم يعرف الإسلام، إلا من سنين معدودة، ومعنى هذا أنه لم يكن متديّنًا، فغير حياته، والتزم بدين.

وبعضكم كان وثنيًا، فترك الوثنية، والتزم بالتوحيد، وبعضكم كان مسيحيًا، فأكمل مسيحيته وآمن بمحمد خاتم النبيين، بعد أن كان مؤمنًا بموسى وعيسى ابن مريم.

قال لهم: بالله عليكم أرجو أن تخبروني بصراحة: ما الذي وجدتموه في الإسلام فشدكم إليه، والتزمت به، وتركتم دينكم القديم وآمنت به؟. هنا اختلفت إجابات المشاركين في المؤتمر، وكل أجاب بما رآه أولاً في الإسلام، ثم اندمج في هذا الدين فأصبح كلُّه محلَّ الإعجاب والحب والتقدير.

• العقيدة:

أجاب أحد المشاركين صاحبي بقوله: أعجبني في الإسلام عقيدته الواضحة، وتوحيده الصافي، فقد ربط بين الله وعباده، وفتح الله بابه لمن يريد أن يدخل إليه، ولم يجعل عليه ثقلًا، ولم يدع لأحد من خلقه أن يدعي أنه هو الوسيط بين الله تعالى وعباده، فإن الله تعالى ليس في حاجة إلى وسيط.

وقد جاء محمد ﷺ إلى مشركي العرب، فقالوا له: أقرب ربنا فنناجيهِ أم هو بعيد فنناديهِ؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]^(١).

ليس هناك في الإسلام مَنْ يدعي أنه عنده (صكوك الغفران)، يبيعها لمن يدفع له ثمنها، ومن دفع الثمن يستلم صك الغفران من الأب أو القسيس. وهذا كذب على الله، لم يعط الله تعالى مفاتيح مغفرته أو جنته لأحد، فيتصرف فيها كما يريد، يبيع صكوك الغفران أو مفاتيح الجنان.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤٨٠/٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٦٧).

في أوربة في العصور الوسطى، كانت سوقٌ رائجة لرجال الدين، وتجار الكهنوت، وهو ما جعل بعض الناس من اليهود والملاحدة يتلاعب مع المتلاعبين بالدين، فذهب إلى أحد القساوسة ليشتري منه (جهنم)، فقال له: وماذا تصنع بجهنم، إنما نبيع ما ينتفع به الناس؟ فقال له: بعها لي، وأنا حر فيها بعد ذلك. فباعها له، وقبض الثمن الذي حدده.

وذهب هذا اليهودي يقول للناس: أنا معي جهنم، وأعدكم بأني لن أدخل فيها أحدًا منكم. يقول للناس: لا داعي أن تشتروا صكوك الغفران بأثمانها الباهظة، فأنا ضامن لكم ألا تدخلوا جهنم، التي اشتريتها من القسيس، واستوليت عليها!.

الباب بين المسلم وربه مفتوح لا حاجة معه إلى مَنْ يتوسط لديه، يستطيع أن يصلي في بيته، مناجيًا ربه، تاليًا كتابه، ذاكرًا له، مصليًا على نبيه، ولا يستطيع أحد أن يقول له: صلاتك غير مقبولة؛ لأنك لم تعتمد على كاهن أو وسيط.

ويستطيع المسلم أن يصوم شهر رمضان، وهو الصيام المفروض سنويًا على كل مسلم ومسلمة، أو ما شاء من الأيام، ما دام يعرف حدود الصيام، دون حاجة إلى أي أحد يقوم بدله بتقديم هذه العبادة.

قلتُ لصديقي المحاور: أنا صمتُ رمضان من صغري، وأنا ابن السابعة من عمري، وظللتُ أصومه مع المسلمين حتى اليوم أكثر من ثمانين عامًا.

ويستطيع المسلم أن يتقدم إلى ربه بزكاة ماله، وأن يعطيها للفقير، داعيًا كل منهما للآخر، وداعيًا هو لنفسه: اللهم تقبلها مني، واجعلها مغنمًا، ولا تجعلها مغرمًا.

وكذلك يذهب إلى الحج من بلده، راغبًا في حج بيت الله الحرام، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، حتى يصل إلى مكان معروف للحجاج، يسمى الميقات، يغيّر عنده الرجال ملابسهم، ويلبسون ثيابًا بيضاء بسيطة غير ملونة، فيلبسها وهو ينوي الحج إلى بيت الله الحرام، قائلاً: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. والمرأة ليس عليها إلا أن تلبس اللباس الذي يغطي بدنهما كله إلا الوجه والكفين، ويكون مناسبًا لهذه الرحلة الربانية.

وما أجمل هذه الكلمات: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك؛ حينما تصدر من فريق من الحجاج، يهتفون بها في صوت واحد، مخلصٍ لله مستجيبِ النداء!.

ومن المشاركين من وصف لصاحبي أنه حفظ كلمات في ذكر الله، وفي الدعاء، وفي الاستغفار من ذنوبه، فتعبّد به كلما قام من ليله، أو تعبد في نهاره.

• الزكاة:

ومن المشاركين من شرح لصاحبي ما حبّبه في الإسلام، وهو الفريضة الثانية بعد إقامة الصلاة، وهي: إيتاء الزكاة، وقد ربط القرآن إيتاء الزكاة بإقامة الصلاة ثماني وعشرين مرة، ليدلنا على أهمية الزكاة التي هي الركن المالي والاجتماعي في الإسلام.

الزكاة هي الجزء المالي الذي يُسهم به المسلم بما كسبه أو ورثه من مال حلال، إذا بلغ نصابًا محددًا معروفًا، فيدفع جزءًا قليلًا منه، قد يكون ربع عشر المال (٢,٥٪ من المال)، كما في الدراهم والدنانير والنقود،

يدفع هذا المقدار القليل عنها في كل سنة، وكذلك مال التجارة، يدفع عنه هذا المقدار، مما عنده من التجارة.

وقد يدفع عشر المال مما يخرج له من الزرع، أو من ثمار الأشجار من النخل والعنب والرمان ونحوها من الفواكه، إذا كانت تسقى بالأمطار المعتادة أو بماء الأنهار من غير تكلفة ميكانيكية أو يدوية أو حيوانية، وإلا فيخرج نصف عشر الزرع.

وكل مال قابل للنماء والزيادة يكسبه المسلم: يدفع عنه الزكاة السنوية، إن أبقاه في منزله، ولم يُنمّه أو يُشغله؛ لأن الأصل في المال الإسلامي: أنه ينمو دائماً، ولا مجال فيه للكنز، وقد توعّد الله تعالى الكانزين بعذاب جهنم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ • يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكُوتُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

هذه الزكاة على المال إذا بلغ نصاباً معيناً، وهناك زكاة على الرؤوس، تجب على الأفراد كل عام بمناسبة الفطر من رمضان، وتسمّى (زكاة الفطر)، وهي بمنزلة كفارة عمّا يقترفه الإنسان من اللغو والرفث، الذي يجب أن يتجنبه الصائم، فإذا لم يتجنبه جاءت هذه الزكاة طهرة له من ذلك، وهي أيضاً كما جاء في الحديث النبوي: طعمة للمساكين في يوم العيد^(١).

(١) رواه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، والحاكم (٥٦٨/١)، وقال: هذا حديث على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الزكاة، والدارقطني، زكاة الفطر (٢٠٦٧) ليس فيهم مجروح، وحسن إسناده النووي في المجموع (١٢٦/٦)، والألباني في صحيح أبي داود (١٤٢٧)، عن ابن عباس.

فلا يجوز أن ينعم الأغنياء بالعيد، ويفرحوا بالفطر فيه، على حين لا يجد الفقراء ما يشعرهم بالفطر في هذا اليوم المبارك. ولهذا شرعت زكاة الفطر، فريضة فرضها الرسول الكريم على كل من كان معه مقدارها، فاضلاً عن قوته وقوت أولاده، يوم العيد وليلته، قال: «أما غنيكم فيزكيه الله تعالى، وأما فقيركم فيرد الله تعالى عليه أكثر مما أعطى»^(١).

فترى كل الناس في العيد تقريباً يشاركون في زكاة الفطر، وهم جميعاً ينفقون في السراء والضراء، القليل يعطي من القليل عنده، والله تعالى يرد عليه ما يستحقه من الأغنياء الذين يعطونه من زكاة فطرهم، فيأخذ أكثر مما أعطى.

وبهذه الزكاة فرض الإسلام أن يشترك أبناء المجتمع كلهم، غنيهم وفقيرهم في فرحة العيد، وقيمون الصلاة معاً، ويُعيد بعضهم على بعض، ولا يقبل الإسلام أن يكون العيد للأغنياء، ويحرم من فرحته الفقراء.

• الحج:

ومن العبادات التي شرعها الإسلام، ونبه عليها المسلمون الجدد: عبادة الحج إلى بيت الله الحرام، وهي فريضة تجب في العمر مرة لمن استطاع إليه سبيلاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

بها يتعرف على إخوانه المسلمين، وهم بالملايين، جاؤوا من أنحاء العالم، لا فرق بين أمير وخفير، ولا بين غني وفقير، يهدرون جميعاً بتلبية واحدة، في زي واحد، وشعائر واحدة.

(١) رواه أحمد (٢٣٦٦٤) وقال مخرجه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الزكاة (١٦١٩)، عن عبد الله بن ثعلبة.

• علاقة المسلم بربه:

ومن المشاركين مَنْ شرح لصاحبي ما يشعُر به من لذة التعبُّد لله تعالى على الطريقة الإسلامية.

فلا يوجد دين كالإسلام ربط بين المسلم وبين الله تعالى، فقد جعل غاية الإنسان الأولى هي عبادة الله تعالى وحده، وعدم الشرك به شيئاً أو أحداً من خلقه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ * [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

بعض الأديان لا يكاد يجد المتدين بها فرصة يلقي فيها ربه، وإذا وجدها كانت أشبه برحلة رياضية، يفرّج بها عن نفسه، وليست فريضة دينية يطالب بها مَن كلفه بأدائها.

المسيحي ليست عنده شعائر تعبدية مفروضة عليه فرضاً دينياً، يخاف من لم يؤدّها من عقوبة الله تعالى عليه، كل ما على المسيحي أن يذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد، وكثيراً ما يذهب بعضهم للتلاقي على الصداقة والتقارب.

أما المسلم في الإسلام فهو يلزم بأداء فرائض أربع، الصلاة والزكاة والصيام والحج، لا بد من أدائها، وعدم تأخيرها عن وقتها المحدد لها:

أولها: الصلوات اليومية الخمس: فرض الصبح من طلوع الفجر إلى شروق الشمس، وصلاة الظهر إلى العصر، والعصر إلى المغرب، وتنتهي صلاة اليوم بصلاة العشاء. ويمكن أن يصلّيها المسلم منفرداً، ولا يحتاج في إقامتها إلى قسيس يساعده، ولا في صلاة الجمعة، كل مسلم يمكنه أن يقيم جماعة مع إخوانه ولا حرج.

وهناك شروط عامة للصلاة، مثل: الاغتسال والوضوء، وطهارة البدن والثوب والمكان. وهناك النية التي هي شرط القبول لكل عمل صالح عند الله: «إنما الأعمال بالنيات»^(١). كما هناك صلوات مطلوبة في أوقات خاصة.

وهناك صلاة الجماعة، وتكون في كل مسجد بأقل ما يمكن من العدد، وكلما كثر عدد المصلين كانت صلاتهم أقرب إلى الله، وأفضل عنده. ومن شقٍّ عليه الصلاة في المسجد صلى حيث استطاع، وأقام جماعة صغيرة إن أمكن مع زوجته أو أمه أو ابنه أو ابنته.

لا يوجد دين غير الإسلام فتح باب الصلوات بين المسلم وربه، فهناك صلاة الليل، التي يقوم فيها المسلم والناس نيام، مناجيًا لمولاه، تاليًا للقرآن، راکعًا ساجدًا، داعيًا خاشعًا؛ كما وصف الله المحسنين من عباده بقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ • وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]، ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وهناك صلاة الضحى، بعد طلوع الشمس وارتفاعها إلى صلاة الظهر، يصلي ولو ركعتين، وخصوصًا لمن لم يستطع أن يكون له حظ من الليل. وهناك صلوات تقام في جماعة، مثل: صلاة الاستسقاء، حين يحتاج الناس إلى المطر، بعد جفاف الأرض، وشوقها إلى الماء الذي يحييها بعد موتها، وتُصَلَّى مع الإمام، أو كبير العلماء في البلدة، لعل الله يزيل جديهم، وينزل عليهم عونهم وغيثه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

• الصوم:

وَمِنَ الْمُشَارِكِينَ مَنْ شَرَحَ لِصَاحِبِي مَا وَجَدَهُ فِي الصِّيَامِ الْإِسْلَامِيِّ، مِنْ مَعَانٍ لَمْ يَجِدْهَا فِي صِيَامِ الْأَدْيَانِ الْأُخْرَى، فَلَيْسَ الصِّيَامُ فِيهِ عَنْ نَوْعٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الطَّعَامِ، مِثْلُ: ذِي الرُّوحِ، وَإِبَاحَةُ الْأَطْعَمَةِ الْأُخْرَى عِدَّةَ أَيَّامٍ، فَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِيهِ تَضْيِيقٌ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَ الْحَرَمَانِ الْمَطْلُوقِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ صِيَامُ الْمُسْلِمِ، وَذَلِكَ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ وَقْتِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَمِنَ الْأَيَّامِ مَا يَكُونُ قَصِيرًا، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ طَوِيلًا، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ بَارِدًا، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَارًّا، حَيْثُ الصِّيَامُ بِالْأَشْهُرِ الْقَمَرِيَّةِ الَّتِي تَمُرُّ بِالسَّنَةِ كُلِّهَا رَبِيعًا وَخَرِيفًا، وَصَيْفًا وَشِتَاءً.

على أن الصيام الكامل هو ما يصوم فيه الإنسان كله عن كل ما يُدنّس صحيفته من السباب، والشجار مع الناس، وقول الإثم، وغير ذلك، ولهذا قال رسول الإسلام ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(١).

هذه العبادات الأساسية الأربع، التي جعلها الإسلام فرائض على المسلمين، لا يُعفى منها رجل ولا امرأة، عند بلوغ سن التكليف بها، وعلى المسلمين أن يتعلّموها ويؤدّوها كما ينبغي، وأن تدخل ضمن مناهجهم التعليمية، حتى يعرفها الصغار قبل أن يبلغوا ليتهايؤوا لها.

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣)، وأحمد (٩٨٣٩)، وأبو داود (٢٣٦٢)، والترمذي (٧٠٧)، وابن ماجه (١٦٨٩) ثلاثهم في الصيام، عن أبي هريرة.

• الذكر:

وهناك عبادات أخرى، ليست فرائض، بل هي مندوبات مستحبات، مطلوبات من المسلم على السَّعة واليسير، مثل: الذكر لله تعالى؛ من التسبيح (سبحان الله)، والتحميد (الحمد لله)، والتهليل (لا إله إلا الله)، والتكبير (الله أكبر)، والحوقة (لا حول ولا قوة إلا بالله).

ومثل: الدعاء، الذي يدعو به الإنسان ربه، كما قال النبي ﷺ: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»^(١).

ومثل: دعاء سيدنا آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ومثل: دعاء سيدنا إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠ - ٤١].

ومثل: دعاء سيدنا شعيب: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

ومثل: دعاء سيدنا موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

ومثل: قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. وقوله: ﴿رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨].

(١) رواه مسلم في الذكر (٢٧٢٠)، عن أبي هريرة.

ومثل: قول السحرة حينما آمنوا وهددهم فرعون، قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

ومثل: قول الحواريين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

ومثل: قول أيوب: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقول ذي النون إذ نادى في بطن الحوت، وهو في الظلمات: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ومثل: قول النبي ﷺ: «اللهم رب جبرائيل وإسرافيل وميكائيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

ومثل دعائه ﷺ: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين، وأغننا من الفقر»^(٢).

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠)، وأحمد (٢٥٢٢٥)، والنسائي في قيام الليل (١٦٢٥)، عن عائشة.

(٢) رواه مسلم في الذكر (٢٧١٣)، وأحمد (٥٩٦٠)، وأبو داود في الأدب (٥٠٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٠)، عن أبي هريرة.

وهناك الاستغفار، أي طلب المغفرة من الله تبارك وتعالى، في صيغة أدعية قرآنية ونبوية، يتذوق الإنسان فيها حلاوة العبودية له، والوقوف ببابه، والتمسح بأعتابه، واستمداد العفو منه، مما قصر فيه الإنسان من الأعمال الصالحات أو الواجبات، وما فرط فيه في جانب السيئات، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].
 ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ ﴿رَبَّنَا وَءَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣ - ١٩٤].

ومن الأدعية النبوية: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني.

اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي.
 اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٩)، عن أبي موسى الأشعري.

ومن المشاركين في هذا المؤتمر: مَنْ بَيَّن ما أعجبه في الإسلام، حيث وجد في بعض التشريعات ما لم يجده في القوانين والأنظمة الأخرى السائدة في العالم.

• الارتباط الأسري:

فبعضهم أعجبه حرص الإسلام على قيام الأسرة، وعلى الارتباط الزوجي، حتى إن القرآن يسمي كلًّا من الرجل والمرأة المرتبطين بهذا العقد المشترك: زوجًا للآخر، فالرجل زوج للمرأة، والمرأة زوج للرجل. والقرآن يجعل ذلك من آيات الله في الكون، مثل: خلق السماوات والأرض؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فبين القرآن في هذه الآية: الأسس والأركان للحياة الزوجية السعيدة؛ وهي السكون النفسي، والمودة والرحمة، ولذا قال تعالى: ﴿أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا﴾، فالإنسان في حاجة إلى مسكنين: مسكن مادي يسكن فيه، وإلى ما هو أهم منه، وهو مسكن معنوي، يسكن إليه، وهو المرأة الصالحة. وفيها قال الرسول الكريم: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»^(١).

• رجال ونساء أسلموا يتحدثون عما أعجبهم في الإسلام:

وما قاله المسلمون العاديون هنا قالتهم نخبة من رجال الفكر والأدب وكبار السياسيين والعلماء والاجتماعيين في عدة أقطار، يشرحون فيها أهم ما رأوا في الإسلام من بيّنات جعلتهم يعتنقونه عن قناعة، ليس فيها تردّد

(١) رواه مسلم (١٤٦٧)، والنسائي (٣٢٣٢)، وابن ماجه (١٨٥٥)، ثلاثهم في النكاح، عن عبد الله بن عمرو.

أو شك، ويجدر بنا أن نذكر طرفاً من أقوالهم، منقولة من كتاب (لماذا أسلمنا؟)، من غير تدخل بالتعليق عليها:

١ - القرآن:

ينقل المستشار كمال رضوان حديث الأستاذ زكي عريبي^(١) عن القرآن قائلاً: «قد كنت ملتصقاً به بحكم عملي معه، كنت أدخل إلى مكتبه لعرض بعض القضايا عليه، فأجده يقرأ القرآن، وأمامه على المكتب كتب الفقه والتفسير، ولاحظ على وجهي علامات الدهشة والتعجب، فابتسم وقال لي: من قراءتي للقرآن تعلمت أصول اللغة العربية وفنونها، وبلاغة البيان، مما أكسبني الكثير والكثير في مرافعاتي، لهذا أنصحك بقراءة القرآن مرات ومرات، وتمتع معانيه، لتكسب طلاقة اللسان وحلاوة التعبير، وتتمكن من أدوات اللغة في مرافعاتك. وقد عملت بنصيحتته وكانت نعم النصيحة»^(٢).

ويقول مؤمن عبد الرزاق صلاح (من سيلان): «قرأت شيئاً من سور القرآن الكريم، فإذا العجب يتملكني؛ كنت فيما مضى أرى أن لا شيء يداني الإنجيل، فإذا بي أراني كنت على خطأ عظيم. ليس من شك في أن القرآن الكريم يشيع فيه الحق، وأن تعاليمه إيجابية عملية، وخالية من الطقوس والعقائد الغامضة، فكان كل يوم يمضي يقربني رويداً نحو دين (السلام والحب)، دين الإسلام ولا ريب»^(٣).

(١) محامي مصري يهودي مشهور، كان عميد اليهود في مصر، وله نشاط سياسي كبير في مصر بعد ثورة يوليو، أسلم عام (١٩٦٠م).

(٢) لماذا أسلمت؟، للأستاذ الكبير زكي عريبي المحامي، ص ٤٩، إعداد محمد عبد الله السمان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.

(٣) لماذا أسلمنا؟، ص ١٨٤، مجموعة مقالات لنخبة من رجال الفكر في مختلف الأقطار عن سبب اعتناقهم الإسلام، طبعة رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.

أما علي سلمان بنوا فيقول: «إن من بين آيات هذا القرآن الذي أوحى الله به منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، ما يحمل نفس النظريات التي كشفت عنها أحدث الأبحاث العلمية»^(١).

ويقول فوز الدين أحمد أوفرنج^(٢): «إن للأسلوب القرآني جماله وروعته، وهذا ما لا يتوفر لأساليب ترجمته إلى اللغات الأخرى، وإنني أشير هنا إلى نص كلمات الله في بعض آيات القرآن: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]»^(٣).

وقال الكولونيل دونالد داس^(٤): «التعاليم الأصيلة التي جاء بها محمد ﷺ لم يغيّرْها المشرّعون بتعديلات أو إضافات، فهاهو القرآن على حاله التي أنزل بها على محمد ﷺ لهداية مشركي ذلك الزمان، يبقى ثابتاً راسخاً رسوخ روح الإسلام ذاته»^(٥).

٢ - دين الفطرة:

وعن كون الإسلام دين الفطرة يقول علي سلمان بنوا^(٦): «ونلاحظ كذلك أن المسيحية التزمت الصمت فيما يتعلق بغرائز الإنسان الفسيولوجية، بينما نرى أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ينفرد بمراعاة الطبيعة البشرية»^(٧).

(١) لماذا أسلمنا؟، ص ٧١.

(٢) واعظ وباحث اجتماعي (هولندا).

(٣) لماذا أسلمنا؟، ص ١٤٨.

(٤) شاعر وناقد ومؤلف (الولايات المتحدة).

(٥) لماذا أسلمنا؟، ص ٩١.

(٦) دكتور في الطب (فرنسا).

(٧) لماذا أسلمنا؟، ص ٧١.

ويقول محمد سليمان تاكيوتشي^(١): «والإسلام دين الفطرة، ولهذا نجد في مرونته ما يناسب حاجات الناس على تباينهم في كل العصور على اختلافها، كما نرى أنه قام بدور هام في تطوير المدنية البشرية في تاريخه الذي يمكن اعتباره قصيرًا نسبيًا»^(٢).

٣ - الانتماء إلى أصل واحد:

أما الانتماء إلى أصل واحد وهو آدم، فيقول عنه الدكتور عمر رولف بارون إهرنفيلز^(٣): «هذا الشعور بالحب للانتماء إلى أصل واحد في الأبوة، يحمل في طياته شعور الحب المقدس للانتماء إلى أم واحدة؛ ومن أسماء الله (الرحمن الرحيم)، وكلا اللفظين مشتق من أصل كلمة (رحم) في اللغة العربية، ويرمز معنى هذا إلى معنى جملة (Goethe's Das Ewing Weibliche Zieht uns himan) بينما معناها اللفظي هو الرحم، من المرأة»^(٤).

٤ - الأخوة الإسلامية:

أما الأخوة الإسلامية فقد كانت مثار إعجاب عدد من المهتمين للإسلام، منهم الدكتور عمر رولف بارون إهرنفيلز، حيث يقول: «يؤكد الإسلام روح الأخوة الإنسانية الشاملة بين عباد الله جميعًا، مهما تباينت سلالاتهم أو طوائفهم، أخوة لا تنال منها الفوارق من لغة أو من تاريخ، أو حتى من العقائد الدينية»^(٥).

(١) عضو بجمعية علم الأجناس البشرية اليابانية (اليابان).

(٢) لماذا أسلمنا؟، ص ١٦٦.

(٣) أستاذ علم الأجناس البشرية (النمسا).

(٤) لماذا أسلمنا؟، ص ٧٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٤.

ويتابع الكولونيل دونالد داس^(١) قائلاً: «والأخوة العالمية الشاملة في الإسلام، بغض النظر عن اختلاف العنصر أو المذهب السياسي أو اللون أو الإقليم؛ قد ثبتت عندي بكل يقين واقتناع مرات ومرات؛ وهذه ظاهرة أخرى كانت ضمن الدوافع التي قادتني إلى الإيمان بالإسلام»^(٢).

ويقول مستر ر. ل. ملما^(٣): «مبدأ الأخوة في الإسلام، يمتد ليشمل البشرية عامة، بغير اعتبار للون أو جنس أو عقيدة، وينفرد الإسلام بين كل الأديان في أنه الوحيد الذي طبّق هذا المبدأ عملياً؛ والمسلمون أينما كانوا على سطح هذه المعمورة، ينظر الواحد منهم إلى الآخر نظرة الأخ لأخيه»^(٤).

وقال علي محمد موري^(٥): «وفي يقيني أن تعاليم الإسلام وحدها، ولا شيء سواها، هي التي تقدم - ولا ريب - الحل الذي طال البحث عنه، لا سيما في مبدأ الأخوة في الإسلام الذي ينال مني كل إعجاب. فالمسلمون كلهم إخوة، ويأمرهم الله أن يعيشوا في سلام، وأن تسودهم روح الألفة، وإنني مؤمن بأن هذا الطراز من الأخوة الحيّة هو أشد ما يفتقر إليه العالم في يومنا هذا»^(٦).

ويقول محمد سليمان تاكيوتشي: «والأخوة في الإسلام لا تعترف بفوارق أو حواجز من موطن أو عشيرة أو سلالة، ولكنها تجمع بين سائر

(١) شاعر وناقد ومؤلف (الولايات المتحدة).

(٢) لماذا أسلمنا؟، ص ٩٢.

(٣) عالم في تاريخ الأجناس البشرية وكاتب وأديب (هولندا).

(٤) لماذا أسلمنا؟، ص ٩٦.

(٥) باحث اجتماعي وواعظ (اليابان).

(٦) لماذا أسلمنا؟، ص ١٥٥.

المسلمين في جميع أنحاء العالم؛ زد على ذلك: أن الإسلام لا يختص
بنخبة قليلة مصطفاة، بل هو دين لعامة الناس، سواء أكانوا باكستانيّين أم
هنودًا، أم عربًا، أم أفغانيين، أم صينيّين، أم يابانيين.. ويأجاز هو دين
عالمي لجميع الأجناس والدول»^(١).

قال مؤمن عبد الرزاق صلاح (من سيلان): «وما كان للأخوة
الإسلامية إلا أن تسترعي إعجابي وانتباهي، وأقول للذين يريدون أن يروا
بأعينهم كيف يتحقق مبدأ (أحبّ لجارك ما تحب لنفسك)^(٢): إنهم لن
يجدوا ذلك في غير ظل الأخوة الإسلامية، فلم يرَ العالم كله وحدة بين
البشر أعظم منها أو أكثر عمقًا وإخلاصًا»^(٣).

٥ - دين يحترم العقل:

وكان احترام الإسلام لعقل الإنسان مثار إعجاب البروفيسور هارون
مصطفى ليون^(٤)؛ إذ يقول: «من مفاخر الإسلام أنه مبنيّ على العقل، ولا
يطالب معتنقيه أبدًا بتجميد طاقاتهم الفكرية؛ مخالفًا بذلك عقائد أخرى،
تلزم تابعيها بالاعتقاد الأعمى لمذاهب وآراء معينة دون تفكير فيها، على
أساس أن ذلك من شأن الكنيسة، بينما يحض الإسلام على البحث،
ويدعو إلى النظر والتدبر، قبل التصديق والإيمان»^(٥).

(١) لماذا أسلمنا؟، ص ١٦٥.

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» رواه
البخاري (٣)، ومسلم (٤٥)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٣) لماذا أسلمنا؟، ص ١٨٤.

(٤) عالم لغوي وجيولوجي ومؤلف.

(٥) لماذا أسلمنا؟، ص ٦٥.

ويقول مستر ر. ل. ملما: «تقدير الإسلام للعقل والمادة، ولقيمة كل منهما، باعتبارهما حقائق قائمة، وأن النمو العقلي في الإنسان يسير جنباً إلى جنب مع احتياجاته الجسدية، وأن على الإنسان أن يسلك في الحياة سبيلاً يهيمن فيه بالعقل على المادة، ويخضع فيه المادة لحكم العقل»^(١).

وقالت الأنسة مسعودة ستينمان^(٢): «والإسلام يدعونا إلى تقديس الله، وأن نخضع لشريعته، وفي ذات الوقت يدعونا ويشجعنا على استعمال العقل، مع مراعاة عواطف الحب والتفاهم جنباً إلى جنب»^(٣).

٦ - سماحة الإسلام مع الأديان الأخرى:

يقول الكولونيل دونالد داس في معرض حديثه عن سماحة الإسلام: «وهذا نابع من اتساع الأفق الفكري، تجعله قريباً إلى قلوب أولئك الذين يتعشقون الحرية، فقد دعا محمد ﷺ أتباعه إلى أن يحسنوا معاملته المؤمنين بالتوراة والإنجيل، وإلى الإيمان بأن إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم رسل من عند الله الواحد الأحد؛ ولا شك أن هذه سَمَاحَة في الإسلام يمتاز بها عن الأديان الأخرى»^(٤).

ويقول مستر ر. ل. ملما: «مبدأ التسامح في الإسلام، كما يبدو في هذه الكلمات الخالدة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وأن المسلم مطالب

(١) لماذا أسلمنا؟، ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) من إنجلترا.

(٣) لماذا أسلمنا؟، ص ١٠٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٩١.

بالبحث عن الحق حيثما وجدته، ومُطالب كذلك باحترام ما في الأديان الأخرى من خير»^(١).

٧ - دين النظافة والطهارة:

وقد كانت نظافة المسلمين أحد الأسباب التي جذبت علي سلمان بنوا إلى الإسلام، يقول: «ومما كان يباعد بيني وبين المسيحية: أنها لا تحوي في تعاليمها شيئاً يتعلّق بنظافة وطهارة البدن، لا سيما قبل الصّلاة، فكان يخيل لي أنّ في ذلك انتهاكاً لحرمة الربّ؛ لأنّه كما خلّق لنا الروح، فقد خلق لنا الجسد، وكان حقّاً علينا ألاّ نهمل أجسادنا»^(٢).

أما الكولونيل دونالداس فيقول: «وكان الرسول حريصاً على صحة قومه، فأمرهم بالتزام النظافة إلى أبعد الحدود، كما أمرهم بالصوم والسيطرة على الشهوات الجسدية. وأذكر أنني كنت عندما أقف في مساجد إسطنبول ودمشق وبيت المقدس والقاهرة والجزائر وطنجة وفاس.. وغيرها من المدن، كنت أحس شعوراً عميقاً بقدرة الإسلام وبساطته، على الارتفاع بروح البشر إلى الآفاق العليا، دون حاجة إلى زخارف أنيقة، أو تماثيل أو تصاوير، أو موسيقا أو طقوس رسمية، فالمسجد مكان للتأمل الهادئ، ونسيان الذات وفنائها، واندماجها في الحقيقة الكبرى، في ذكر الله الأحد»^(٣).

(١) لماذا أسلمنا؟، ص ٩٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٧١.

(٣) المصدر السابق، ص ٩١ - ٩٢.

٨ - دين الاعتدال والتيسير:

قال الكولونيل دونالد داس: «والاعتدال والتوسط في كل شيء هما دعامتان أساسيتان في الإسلام استحوذتا على كل إعجابي وتقديري»^(١).

وقال عمر ميتا^(٢) في أثناء مقارنته بين البوذية والإسلام: «ولكن الإسلام يختلف عن ذلك كل الاختلاف، فتعاليمه سهلة بسيطة وواضحة لا التواء فيها، وهي في نفس الوقت عملية إلى أبعد الحدود.

الرجل العادي يستطيع أن يفهم تعاليم الإسلام لبساطتها وسهولة تطبيقها، ولذلك لا نجدها حكراً على طائفة من رجال الدين أو القساوسة، كما نرى ذلك في الأديان الأخرى»^(٣).

وقال مؤمن عبد الرزاق صلاح: «وقد أقنعني بالإسلام فوق ذلك خلوه من التعقيدات، فهو مثالي وعملي، وهو دين العقل والقدرة على التطور، وهو كذلك مثالي في عقيدة وحدانية الله، وفي نواحيه الروحية، وبهذا فهو الدين الوحيد الذي تصلح به البشرية جميعاً؛ لأنه عملي في نظرياته ومعتقداته، ولأنه منطقي ومتجدد تجدد الحياة»^(٤).

٩ - دين المساواة بين الناس جميعاً:

وعن كون الإسلام دين المساواة بين الناس جميعاً يقول الكولونيل دونالد داس: «وتتجلى ديمقراطية الإسلام التي أثارت إعجابي في تساوي

(١) لماذا أسلمنا؟، ص ٩١.

(٢) من رجال الاقتصاد وباحث اجتماعي وواعظ (اليابان).

(٣) لماذا أسلمنا؟، ص ١٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص ١٨٥.

الحقوق بين الملك صاحب السلطان وبين الفقير المتسول داخل جدران المسجد، فهم يسجدون جميعاً لله، ليس هناك مقاعد تُستأجر، ولا أماكن تُحجز لفئة دون أخرى»^(١).

وقال مستر ر. ل. ملما: «والمساواة بين الناس جميعاً أمام الله، تتمثل واضحة في لباس الإحرام في الحج»^(٢).

١٠ - الصلة بين العبد وربّه مباشرة:

يقول الكولونيل دونالد داس: «لا يؤمن المسلم بوسيط بينه وبين ربه، بل يتوجّه رأساً إلى الله خالق الخلق وواهب الحياة - وهو لا يراه - دون التجاء إلى صكوك غفران، أو إيمان بقدرة معلّم على منحه الخلاص»^(٣).

وقال مستر ر. ل. ملما: «الصلة بين خالق الكون ومخلوقاته التي ميّز الله الإنسان عليها صلة مباشرة؛ فلا يحتاج المؤمن إلى وساطة، كما لا يحتاج الإسلام إلى كهنوت. ومن تعاليم الإسلام أن الصلة بالله ترجع إلى الإنسان نفسه، وأن على الإنسان أن يعمل في حياته الدنيا لحياته الأخرى، وأنه مسؤول عن عمله، ولن تكفّر ذنوبه بتضحية نفس أخرى بريئة؛ وأنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]»^(٤).

(١) لماذا أسلمنا؟، ص ٩٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٦.

أما السيدة سيسيليا محمودة كانولي (من أستراليا) فتقول: «ولو أن أحدًا سألني عن أهم جانب في الإسلام اجتذبنني، لأجبت: إنها الصلاة؛ لأن الصلاة في المسيحية لا تعدو أن تكون دعاء الله (بواسطة المسيح عيسى) ليمنحنا خير الدنيا، أما في الإسلام فهي ثناء على الله، وتحميد له على كافة نعمه؛ لأنه العليم بما ينفعنا، ويمنحنا ما يلزمنا، دون أن نسأله من ذلك شيئاً»^(١).

١١ - دين الإسلام شامل:

وعن شمول الإسلام تقول الأنسة مسعودة ستينمان^(٢): «يقول الله في القرآن، وهو رسالة الخالق إلى جميع خلقه على اختلاف أجناسهم وأممهم ومكانتهم في المجتمع: ﴿قُلْ يَتَّابِعُوا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

لا أعرف دينًا يقبله العقل ويجذب الناس إليه، وله من المؤمنين به مثل هذه الجموع الضخمة، ويبدو لي أنه ما من طريق أقرب منه إلى الاقتناع العقلي والرضا في الحياة، ولا أعظم منه أملًا للنجاة في الحياة الآخرة بعد الموت»^(٣).

ويقول عمر ميتا^(٤): «والإسلام ينظم الحياة البشرية في كافة جوانبها، ويصقل التفكير الإنساني، وإذا ما صلح تفكير الإنسان ووصفا، صلح معه العمل تلقائيًا»^(٥).

(١) لماذا أسلمنا؟، ص ١١٧.

(٢) من إنجلترا.

(٣) لماذا أسلمنا؟، ص ١٠٤.

(٤) من رجال الاقتصاد وباحث اجتماعي وواعظ (اليابان).

(٥) لماذا أسلمنا؟، ص ١٥٠.

١٢ - دين يوازن بين متطلبات الروح وحاجات الجسد:

وعن توازن الإسلام يقول محمد سليمان تاكيوتشي: «الحياة البشرية مزيج من الروح والمادة، فقد خلقنا الله من روح وجسد، فإذا أردنا الكمال لحياتنا، كان لزامًا علينا أن نربط بين أرواحنا وأجسادنا، وألا نجعل حدًا فاصلًا بين حياة روحية ومادية.

والإسلام يقدر أهمية كل من الجانبين المادي والروحي، ويضع كلاً منهما موضعاً الصحيح، وعلى هذا الأساس تقوم فلسفته التي تتناول جميع نواحي الحياة البشرية»^(١).

وقال محمد إسكندر راسيل وب^(٢): «إن روح العقيدة الإسلامية الحقّة تكمن في الخضوع لإرادة الله؛ وحجر الزاوية فيها الصلاة. والإسلام دعوة إلى الأخوة العالمية وإلى المحبة بين العالمين جميعاً، وإلى الخير للناس كافة، ويتطلب طهارة العقول، وطهارة العمل، وطهارة الحديث، ويدعو إلى طهارة البدن ونظافته.

إن هذا الدين - بين جميع الأديان التي عرفها العالم - هو ولا شك أبسطها، وهو في نفس الوقت أقدرها على السمو بالبشرية»^(٣).

وقال الكولونيل دونالد داس: «إن بساطة الإسلام، ومساجد المسلمين بجاذبيتها وبما في أجوائها من روعة وجلال، والجدُّ والوقار اللذين يتميَّز بهما المسلمون المؤمنون، والثقة الباعثة على اليقين في قلوب الملايين

(١) لماذا أسلمنا؟، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٢) سياسي ومؤلف وصحفي (الولايات المتحدة الأمريكية).

(٣) لماذا أسلمنا؟، ص ٥٦.

العديدة المنتشرين في أنحاء المعمورة؛ والذين يستجيبون لنداء الصلاة،
لخمس مرات في اليوم، كل هذه الأمور ملكت عليّ مشاعري منذ البداية.
على أنني بعد أن قرّرتُ أن أنضمَّ إلى ركب المسلمين، وجدت أن هناك
أسبابًا كثيرة أخرى أهم وأعمق من هذه الدوافع زادتني يقينًا وتصميمًا؛ هذا
الإدراك الناضج للحياة، وهو من ثمار السنة المحمدية التي تجمع بين الرأي
السديد والقدرة العملية، وهذا التوجيه الحكيم، وهذا الحث على البر
والرحمة، وهذه النزعة الإنسانية الشاملة، وهذا الإقرار الرائد بتقرير حق
الملكية للمرأة، هذه الأمور وكثيرٌ غيرها من التعاليم التي جاء بها رجل مكة
(الرسول ﷺ)، كانت بالنسبة لي من الشواهد الحية على واقعية هذا الدين،
التي أبرزها محمد ﷺ في قول موجز محكم أخاذٍ سديد»^(١).

ويقول فوز الدين أحمد أوفرنج^(٢): «الإسلام يعني أن يكون المرء
متفقًا مع نفسه، ومع العالم، ومع الله، إنه يتضمن التسليم بإرادة الله»^(٣).

ويقول محمد سليمان تاكيوتشي: «والإسلام كفيل بحل مشاكل
الحياة؛ وهو الدين السماوي الوحيد الذي انتصر على عاديّات الزمن؛
وتعاليمه باقية على أصولها، كما أوحى بها إلى الرسول ﷺ منذ أربعة
عشر قرنًا»^(٤).

* * *

(١) لماذا أسلمنا؟، ص ٩٠.

(٢) واعظ وباحث اجتماعي (هولندا).

(٣) لماذا أسلمنا؟، ص ١٤٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٥.



الناري الشباي

الفهرس



• مقدمة ٥

- ١ -

القضية المصيرية الكبرى لكل إنسان

• القضية المصيرية الأولى لكل إنسان: ماذا أنا؟ وما مصيري؟ ١٢

- ٢ -

إنها لجنة أبداً أو لنار أبداً

- أهل الدين يدعون الناس إلى جنة الخلد ٢٠
- ذكر ما لأدنى أهل الجنة فيها ٢٣
- وصف درجات الجنة وغرفها وأنهارها ٢٥
- فناء الدنيا ومتعتها ٢٧
- أهل الدين يدعون الناس إلى الفرار من عذاب جهنم الأبدي ٢٩
- الاستعاذة بالله من النار ٣٠
- الترهيب من النار ٣١
- شدة حرّ النار وبُعد قعرها ٣٣

- ٣ -

بقية الأسئلة الخالدة

- الأسئلة الخالدة ٣٨
- من أين؟ وكيف؟ ٤٠

- إلى أين المسير؟ ٤٥
- لماذا خُلِق الإنسان؟ ٤٧

- ٤ -

هل يعيش الإنسان بغير دين؟ وأي دين يرتضيه الإنسان لنفسه؟

- إلغاء الدين من حياة الإنسان وفكره ووجدانه ٥٣
- مناقشة الملحدين الذين ينكرون وجود الإله ٥٤
- دلالة الفطرة السليمة ٥٧
- دلالة الكون على الله ٥٩
- الأدلة الكونية الأربعة ٦٠
- ما موقف الماديين أمام هذه الأدلة؟! ٧٣
- فكر في نهايتك إن كنت ذا دين ٧٩
- أمام الوثنية طريقتان للتعامل مع الدين ٨٢
- الأديان الكتابية ٨٢
- أي دين من الأديان الكتابية نرتضيه؟ ٨٥

- ٥ -

الإنسان مخلوق مختار

- دلالة الكون على الله ٩٧
- الإنسان مخلوق غير مستقِل ٩٧
- الإنسان مخيّر أم مسيّر.. بين الخير والشر؟ ١٠١
- الرد على من يزعم أنه مخلوق للشر لا للخير ١٠٤
- من يزعم أنه مجبور من القدر الأعلى ١٠٥
- القدر لا يفرض سلوكًا معينًا على الإنسان ١٠٦
- الإنسان هو الذي يصنع مصيره بيده ١٠٧

-٦-

أعذار غير مقبولة

- الأصدقاء هم الذين ضللوني ١٠٩
- سبب شقاء الإنسان هو المرأة ١١١
- سبب شقاء الإنسان هو الطوائف الأخرى المخالفة ١١٣
- من الناس من يرمي وزره كله فوق ظهر إبليس ١١٥

-٧-

ماذا يقدم الدين الصحيح للإنسان؟

- الدين يحقق الأمن النفسي للإنسان ١١٨
- الغاية الأولى للإنسان: الربانية: أن يعيش لله وحده ١١٩
- من ثمرات هذه الربانية في النفس والحياة ١٢٢
- تفاوت الغايات والأهداف لدى الأفراد ١٣١
- الدين يرد الإنسان إلى فطرته، فيلتقي بعباد الله في التاريخ كله ١٣٨

-٨-

هل للدين مكان في عصر العلم؟

- حجة من يرفض الدين ١٤١
- الحضارة والعلم ١٤٢
- موقف الإسلام من العلم ١٤٢
- إضافات مهمة لوقف الإسلام من العلم ١٤٥
- أثر العلم الإسلامي في الحضارة ١٤٧
- الإسلام يوحد بين الدين والعلم ١٥٣
- أين نشأت مشكلة التعارض بين الدين والعلم؟ ١٥٤

- ٩ -

الطب النفسي في موكب الإيمان

- من الفلاسفة من يؤمن بأثر الإيمان وإن لم يؤمن بالله ١٦٦
- الإيمان الذي نعنيه هو الإيمان القوي الدافق ١٦٧
- أثر الإيمان والدين في بلادنا الإسلامية ١٦٨
- أثر الإيمان في حياة الفرد ١٧١
- الإيمان وكرامة الإنسان ١٧٢
- الإيمان والسعادة ١٧٤
- سكينه النفس ١٧٦
- أنس المؤمن بالوجود كله ١٧٨
- الرضا ١٨٣
- الأمن النفسي ١٨٦
- الأمل ١٨٨
- الثبات في الشدائد ١٩٠
- الملحدون يعترفون بأثر الإيمان في الأزمات ١٩٣

- ١٠ -

لماذا أنتم مسلمون؟

- العقيدة ١٩٧
- الزكاة ١٩٩
- الحج ٢٠١
- علاقة المسلم بربه ٢٠٢
- الصوم ٢٠٤
- الذكر ٢٠٥
- الارتباط الأسري ٢٠٨
- رجال ونساء أسلموا يتحدثون عما أعجبهم في الإسلام ٢٠٨



الناري الشبائي

